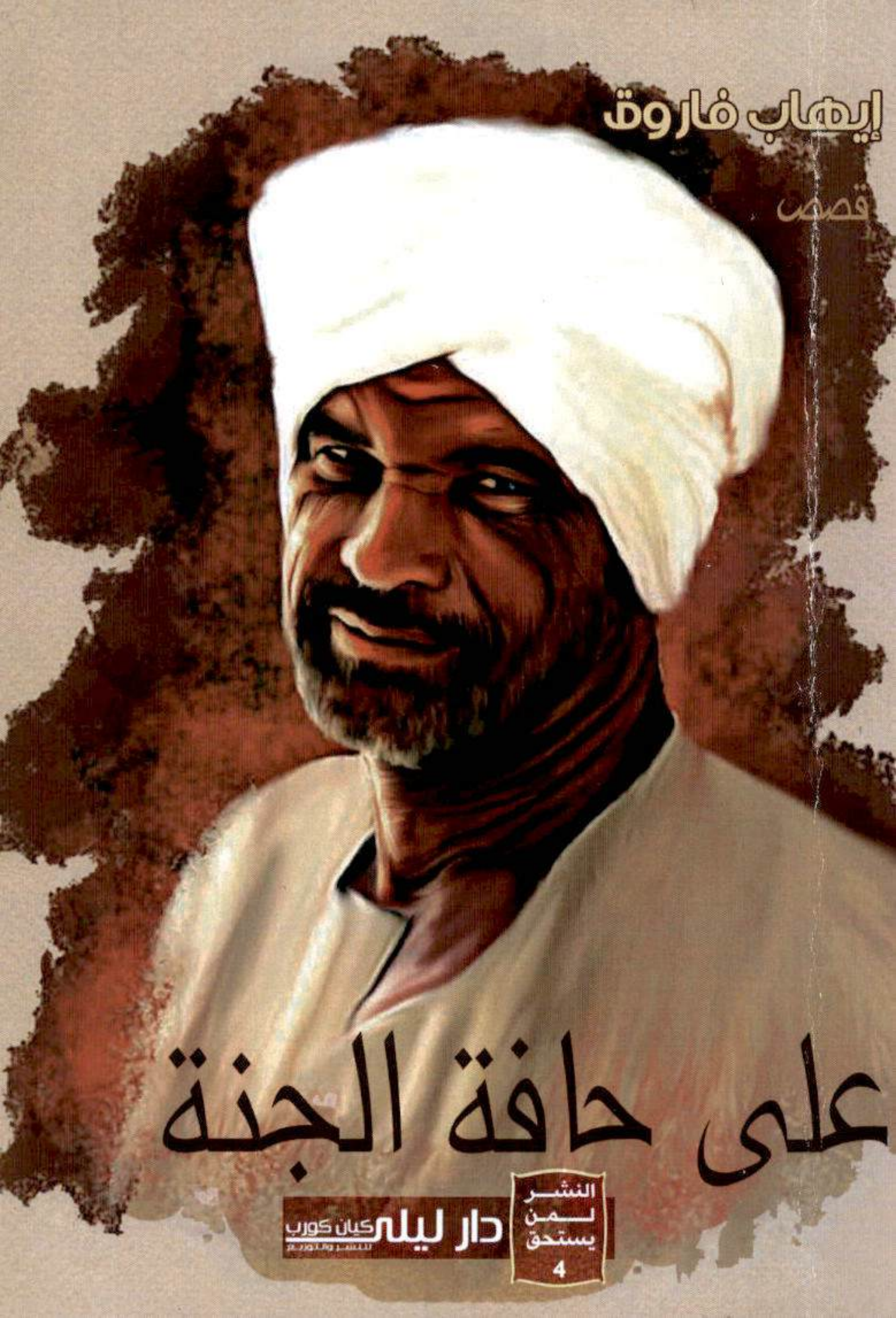


إيهاب فاروق
قصص
على حافة الجنة
دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع
النشر لمن يستحق
4

على حافة الجنة

قصص

إيهاب فاروق

كيان كورب للنشر والتوزيع

(دار ليلى)



الكتاب:

على حافة الجنة

المؤلف:

إيهاب فاروق

★★★

الغلاف:

محمد محمود

★★★

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

رقم الإيداع: 11333/2014

الترقيم الدولي: 978-977-5238-28-3

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042(02)(002)-23885295(012)(002)

البريد الإلكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

إيهاب فاروق

على حافة الجنة

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع



مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر، التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة– اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها– بالشباب الموهوب..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج، على رأسها:

- توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

- تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب، حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

- تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

- توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصري، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح – مثل سابقيها– بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

الناشر

إهداء

إلى العجوز الجميلة

إلى الأم التي ضحى بها أولادها

إلى البكر التي ترملت قبل الأوان

إليها هي فقط أقول

آسف

سامحينا

يا أم الدنيا

إيهاب فاروق

(٦) على حافة الجنة*

* في سبتمبر 2013

مضت ثلاثة أيام بلياليها، ولم يحترق القبر بمن يرقد فيه، لا بُدَّ أن هناك خطأ ما في الموضوع، هل كان حكم أهل البلدة قاسيًا إلى هذه الدرجة، وهل يكفي أن تغيير اسم شخص ما، لكي يتحول قبره إلى حفرة من حفر النار، كان أهل البلدة هم الذين أصدروا الحكم، أصدروه حتى قبل أن تنعقد المحكمة، فقط حكموا بما رأوه وانتهى الأمر، هذا الرجل "كافر"، ومثواه إلى جهنم وبئس المصير!!

مات "المحروقي" بعدما فقد كل شيء، فقد حتى اسمه الحقيقي "مدني"، الذي نسيه الناس وربما نسيه هو نفسه، في ظل كل تلك الإشاعات التي انتشرت عليه، فهذا الرجل محروق محروق لا محالة في نار جنهم، ولهذا سموه المحروقي، حتى إن الأطفال عندما كانوا يتشاجرون، كانوا يدعون على المعتدي منهم بأن يلقى مصير المحروقي، وعندما يحلف أحدهم على شيء يُصر الآخرون على أن يضيف إلى يمينه عبارة "إلهي أندفن جنب المحروقي لو كنت بكذب"، حتى يكتوي الكاذب بنار العذاب، لمجرد أنه غش في لعب البلي، وأخذ لنفسه أكثر من الآخرين، أو أنه قد أغمض عينًا وترك الأخرى مفتوحة في لعبة الاستغماية.

لكن البعض ظل يؤكد أن القبر وإن لم يشتعل نارًا حتى الآن، إلا أن

جدرانه كانت حامية بنار الجحيم، وهذا هو ما أكده كل من جس القبر في عز الظهر، فمن ذاك الذي يجرؤ على الاقتراب من هذا القبر في ظلام الليل، أو حتى بعد صلاة المغرب، ذلك القبر الذي تم بناؤه على عجل، وخلال يوم واحد فقط، ليدفن فيه المحروقي، بعد أن رفض غالبية أعيان البلد وشيوخها، أن يتم دفنه في مقابر المسلمين، ولا توجد مدافن للصدقة في البلد، وحتى لو كانت هناك مدافن للصدقة، فما ذنب هؤلاء المساكين المدفونين فيها، ليرقد المحروقي بجوارهم مشيمًا بلعنته.

وكادوا أن يلقوا بجثمان المحروقي خارج البلد، لولا أن بعض العقلاء قد حذروا من ذلك، حتى لا تكون فتنة غير مأمونة العواقب، واختلف الجميع على الأمر والجثمان ما زال مسجى على الطاولة وبلا تغسيل، ولا يمكن أن يتركوه هكذا بلا دفن، فإكرام الميت دفنه حتى ولو كان هذا الميت هو المحروق المحروقي، الذي كاد أن يحرق البلد كلها بكفره حيًّا، ويريد أن يحرقها كذلك بنار الفتنة ميتًا.

وبالرغم من أن هذا الحكم، الذي أصدره أهل البلد على المحروقي، لا يستند إلى أي سند شرعي، فقد كان الرجل مثله مثل كل أهل البلد، يعتاد الصلاة في الجامع الكبير، على الأقل في يوم الجمعة، بل ويحرص على الجلوس في الصف الأول، فإن الصف الأول كان محجوزًا دائمًا لكبار وأعيان

البلد، الذين تعرفهم من عباءاتهم السوداء ومسابحهم الياقوت الطويلة، وكثيرًا ما كان يقوم أتباعهم بدفع المحروقي بخشونة، حتى يترك مكانه وهو الجالس فيه من قبل الأذان، حتى يرجع إلى الصفوف الخلفية، والسبب المعلن هو ملابسه الرثة الملوثة ببقايا الطين، فقد كان يأتي بها للصلاة مباشرة من الغيطان، لكن المحروقي أصبح يُصر مؤخرًا على التشبث بحقه في الصف الأول، ويرفض القيام لأحد مهما كان، فعدم امتلاكه لعباءة جوخ وجلباب كشمير، أو حتى لمسبحة طويلة من الخرز أو الياقوت، لا يعني أبدًا أن يتم تجنيبه إلى الصفوف الأخيرة في بيت من بيوت الله، حتى ولو لم يجهد نفسه في نظافة ثيابه الملوثة بالطين، والتي لا يمتلك غيرها، فقد خلقه الله من الطين كما خلق كذلك هؤلاء الأعيان، الذين يريدون أن يحافظوا على أماكنهم بالقرب من القبلة، حتى ولو تأخروا عن الصلاة، فإذا أتوا اخترقوا الصفوف وقفزوا من فوق الرؤوس، ليجدوا أماكنهم وقد حُفظت لهم في الصفوف الأولى، وربما اعتقدوا أنها ستُحفظ لهم كذلك في الجنة!! لكن وحده المحروقي هو الذي أصبح ينازعهم في ذلك مؤخرًا.

ولو أن موضوع الصلاة في حد ذاته، لم يكن الدافع الحقيقي لهؤلاء الأعيان، حتى يُبعدوا المحروقي ومن على شاكلته من صدارة الصفوف، لكنه الخوف من أن يعرف هؤلاء المتنطعون ما يحدث في هذه الصفوف من ترتيب

لشئون البلد، تلك الصفوف التي تتصدى لجمع التبرعات، وتقتسم أموال صناديق النذور، إلى الشهادة على عقود الزواج، التي يكون أغلبها بغرض المصلحة، وإن تغلف الأمر بصورة شرعية، وكذلك عقد جلسات الصلح بين المتخاصمين، أو حتى بسبب رغبة البعض في الوجود والظهور بمظهر العليم ببواطن الأمور، خصوصًا مع قدوم موسم الانتخابات، وتعدد زيارات المرشحين للبلد في يوم الجمعة، والتي تبدأ دائمًا بالصلاة في المسجد الكبير، ثم بخطبة عصماء في محراب المسجد، عن ذلك المرشح المؤمن الذي سيأتي بكل الخير للبلد، ثم تنتهي حول الولائم العامرة بما لذ وطاب من أصناف الذبائح، والتي يتصدرها بالطبع رواد الصفوف الأولى من الأعيان، ثم تنعقد التربيطات الانتخابية بمباركة من شاغلي الصف الأول، الذين يصر المحروقي حاليًا على أن يوجد بينهم.

حاول أتباع الأعيان منع المحروقي بشتى الطرق، إلا أنهم كانوا ييأسون منه في النهاية، فكانوا يتركونه جالسًا وفي عيونهم نظرات ذات مغزى، نظرات كان أقلها يمتلئ بالحقد وأكثرها يتوعد بالانتقام، من هذا الرجل الذي يسوق لهم الهبل على الشيطنة، فقرروا أن يتلاشى عنه ذلك الهبل رويدًا رويدًا، حتى لا تبقى للمحروقي إلا الشيطنة.

بدأت خطة شيطنة المحروقي من هنا من الصف الأول، ورغم أنه كان

يجلس بينهم، فإنه لم ينتبه أبدًا لتلك المخططات، ربما لأنه كان يهتم بأشياء أخرى على رأسها النظر لملابسه الرثة كل فترة، كلما قارنها بما يلبس من حوله من عباءات غالية، ورغم أنهم قد تأكدوا من غفلته، لكن ظل خوفهم الواضح من أذنيه، تلك التي تسمع حتى ولو لم تنظر لهم عيناه، خصوصًا أن لسانه لم يكن له رابط، ولا ينسى له البعض عندما لسَّن عليهم، أثناء عملية بيع إحدى بنات البلد الصغيرات، لأحد شيوخ الخليج الطاعنين في السن، تحت مظلة الزواج، ففضح هؤلاء الذين تقاضوا مبلغًا ماليًّا، لتزوير سن البنت الصغيرة في شهادة الميلاد، بل وسلموا شهادة الميلاد للمأذون، وتسلم المزور النقود ووضعها في "السيالة" وهو يجلس في الصف الأول وبالقرب من القبلة، دون أدنى مراعاة لحرمة المكان، ولهذا كانت الخطة تعتمد بالأساس على المحروقي نفسه، الذي لا يتحكم في أعصابه ويشتم ويسب لأتفه الأسباب.

كان للمحروقي تاريخ طويل مع العنف، حتى إنه قتل حماره ذات مرة، عندما ضربه بالحجر فوق رأسه، ورغم أن المحروقي نفسه قد ندم كثيرًا على تلك الفعلة، وبكى بكاءً حارًّا بجوار جثة الحمار، فقد كان ظهر هذا الحمار يأتي للمحروقي بنصف رزقه، لكن المحروقي ظل يحرص دائمًا على ألا يظهر بضعفه أمام الناس، ولهذا لم يتوقف عن فظاظته مع الحيوانات، وكذلك مع البشر، خصوصًا هؤلاء اللاعبين الصغار، الذين ظلوا

يشتمونه بقولهم "يا محروقي يا كافر"، ثم يفرون هاربين تاركين المحروقي يحترق غضبًا.

ورغم أن أحدًا لا يعرف بالضبط، من هو مصدر إشاعة كفر المحروقي هذه، فإن الإشاعة قد انتشرت بسرعة النار في كومة قش، ولم تعد ملابس المحروقي الرثة الملوثة بالطين، هي السبب الأهم لإبعاده عن الصف الأول، فقد صار هناك سبب أكبر وأعظم، فهذا الرجل "كافر" ولا يصح أن يوجد هكذا في صدارة صفوف الصلاة مع المؤمنين، فتم دفعه بالقوة نحو الصفوف الخلفية، وبعد أن كان يسمع أحاديث الكبار وانحرافاتهم، أصبح يستمع إلى تلميحات الصغار وتغامزهم عليه، وتساؤلهم المقيت عن سبب وجوده أساسا في المسجد، فصار يستشيط غضبًا ويقول كلامًا يُؤاخذ عليه، حتى إنه قد حلف يومًا بألا يدخل لله بيتًا، طالما أن هؤلاء موجودون فيه، وهكذا كلما ازداد احتراق المحروقي غضبًا، ازداد كفره في نظر الجميع.

مات المحروقي فجأة أو ربما مات غِيلة، لم يكن أحد يهتم بذلك، فالمهم أنه قد مات والسلام، وتخلصت البلدة كلها من لعنته، بعد أن تطاول على بيت من بيوت الله، وحلف بألا يدخله، وهكذا ضاعت بقية الجملة "طالما هم فيه"، وتطاول كذلك على الجميع كبيرهم قبل الصغير، لكن الصغار غالبًا ما يسامحون وينسون الإساءات، أما الكبار فيعتبرون أن التطاول على ذاتهم هو التطاول على نظام الكون نفسه، فهم يبنون لكرامتهم كعبة يصبح الحج

إليها فرضًا واجبًا، ولا حُجة فيها لغير المستطيع، فأخرجوا المحروقي من زمرة المؤمنين بسنة الحياة، التي يتسيدها الكبار حتى في الصلاة، إلى زمرة الغاوين في الدنيا والهالكين في الآخرة.

دُفن المحروقي في قبره الجديد، والذي بُني على أطراف جبانة البلد، بعيدًا عن كل القبور، وبعيدًا كذلك عن كل أشجار التوت التي تظللها من حر الشمس، والتي يعتليها الصغار لقطف التوت نهارًا، وعيونهم تترقب احتراق مقبرة المحروقي ما بين ساعة وأخرى، لدرجة أن أحدهم قد سمع صوتًا غريبًا لم يتبين مصدره، فاعتبره صوت استغاثات المحروقي وهو يئن في قبره من العذاب، حتى شاهد قطة سوداء وهي تفر من خلف المقبرة، عندما طاردها أحد الكلاب الضالة فانقطع الصوت.

انتشرت أدخنة النيران في سماء البلدة، النائمة من بعد صلاة العشاء، كانت ألسنة اللهب ترتفع من عند المقابر، هكذا قال أحد الساهرين القلائل الذين شاهدوها في تلك الساعة، فانطلق النفير في البلد وأخبر الداني منها القاصي، فيبدو أن قبر المحروقي قد احترق أخيرًا، فامتنع الجميع عن الذهاب للمدافن حتى لا يبوءوا باللعنة، وإن كانوا قد اعتبروا حريق القبر بجوار مقابرهم، عقابا من السماء لهم، لأنهم لم يحرقوا جسد المحروقي بأنفسهم عندما مات، بل ودفنوه هكذا بجوار قبور المسلمين، وعسى الله أن

يطهر قبور موتاهم بهذا الحريق.

طلع النهار وأهل البلد في غاية السعادة، بعد أن ناموا مطمئنين، فقد تحققت النبوءة التي مست لب عقيدتهم، فلا يمكن أن يُترك كافر هكذا بلا عقاب إلهي، حتى ولو بعد موته ودفنه، ولو أن ذلك كما يرى البعض، كان يجب أن يكون بأياديهم هم، والأجر والثواب عند الله، فانطلقوا ناحية المقابر ليستكملوا ذلك الأجر الذي فاتهم.

كانت بقايا الحريق الكبير، لا تزال منتشرة في المكان، وقد احترقت كل أشجار التوت، فعلا الوجوم وجوه أهل البلد جميعًا، ووصل إلى الأسى والحسرة لدى البعض، فقد احترقت مع أشجار التوت كثير من قبور جبانة البلد، بل وتهدم معظمها من جرَّاء سقوط الأشجار عليها، ووصلت النيران حتى للعظام الباقية، فانهمكوا في تجميع بقايا العظام المحترقة، والتي اختلط بعضها ببعض، حتى لم يعد يُعرف منها عظام الشريف من عظام الصعلوك، ورغم أنهم لم يجهدوا أنفسهم لمعرفة أسباب الحريق، فقد أعمت لعنة المحروقي كل العيون، لكن الشيء الوحيد الذي فجعهم حقًا، هو بقاء قبر المحروقي على حاله، ولم تمسسه أي نار، فلم يجد بعضهم بدًّا من أن يقول لنفسه معزيًا، حتى ولو أفلت المحروقي من نار الدنيا، فلتكفه نيران الآخرة!!



(2) راديو ترانزيستور *

* في أكتوبر 2013

جلس هادئًا في كشكه الصغير، الذي لا تتعدى مساحته مترا مربعا واحدا، وهو يعضعض في بطاريات الراديو الترانزيستور الذي لا يفارقه، بعد أن ضعفت وانخفض صوته، ثم ركبها مرة أخرى، وبدأ يقلب في الموجات، لم يعد يطيق الاستماع إلى الأخبار، كما أنه لا يحب سماع الأغاني، أما مباريات كرة القدم فقد توقفت إذاعتها في الراديو، بعد أن توقف الدوري.

أدار المؤشر حتى استقر على إذاعة القرآن الكريم، الوقت طويلٌ ويمر بمنتهى البطء والملل، تذكر نصائح شيخه بأن يستغل دقائق الانتظار في الاستغفار، لكنها ليست دقائق، وإنما ساعات وأيام وشهور، بل سنين، ولكن ماذا يفعل فهو مجبرٌ على ذلك، وليته كان يقف على خط من خطوط الحدود، ليحارب الأعداء في سبيل الله، لكن معظم من يقفون الآن على الحدود يُقتلون، هكذا كان يقول زملاؤه في المعسكر، ولكن ليس بيد الأعداء، وفي سبيل الله كذلك!!

الواسطة وحدها هي التي وضعت "مأمون"، الجندي المجند في الأمن المركزي، لكي يخدم في هذا المكان، بعد أن تقلب في كل الشوارع، كانت تحمله في كل يوم سيارة نقل كبيرة، بعد أن يُحشر في صندوقها حشرًا معَ زملائه، ليتم توزيعهم على أماكن المظاهرات، وهم يحملون عصيًّا ودروعًا بلاستيكية،

وأسلحة قديمة بلا ذخيرة، فقط مطلوبٌ منهم أن يشكلوا حيطانًا بشرية، ثم يَضربوا بالعصي بلا هوادة، ويضْربوا كذلك بلا هوادة، حتى يسمعوا صوت طلقات الرصاص الحقيقية، وهي تنهال على الجميع من كل اتجاه، لتصيب من تصيب، وتقتل من تقتل، بلا تمييز!!

لكنه الآن قد صار على حافة الصراع، فبعد محاولات مضنية من أحد أقاربه الكبار، قد انتقل ليجلس في هذا الكشك الصغير، على باب أحد المباني العتيقة، التي لا يدرى حتى الآن، ما الذي يحفظوه بداخلها، فقط كان مطلوبًا منه أن يقف طوال خدمته "زنهار"، على باب مغلق بقفل وجنازير، ولا يبدو أن أحدًا يدخله منذ زمن بعيد، لكنه كان يجلس من التعب على حجر في الكشك ولا ينفذ الأوامر، حتى تنتهي نوبته في الحراسة!!

التقى بشيخه في المرة الأخيرة قبل سفره، بعد أن صلى خلفه صلاة المغرب، كان الشيخ سعيدًا على غير العادة، بعد أن سمع بخبر نقله إلى مكانه الجديد، ولم يخفه سرًا بأنه كان يتألم في كل يوم، عندما يتذكر أنه يخدم ضمن جحافل الباطل، التي تحارب دين الله أن يُمكن في الأرض، لكنه قد طمأنه بأنه كان في حكم المضطر، أو في حكم الأعمى الذي يحمل حملاً إلى حيث لا يدري، ولهذا ليس عليه من حرج، أما الآن وبعد أن اقتصر الأمر معه، على مجرد الجلوس في علبة صغيرة فلا إثم عليه، وعندما تقوم دولة الحق على

أرضها، فسوف يكون جنديًا من جنود الله ليحارب في سبيله، هكذا دعا له الشيخ في درسه الحاشد، الذي يعقده لمريديه بين صلاتي المغرب والعشاء.

غفلت عيناه لحظة، بعد أن انخفض صوت الراديو مرة أخرى، لم يكن يمر عليه أي تفتيش في تلك المنطقة على الإطلاق، فالمكان ناء والشوارع خاوية هادئة، لم يكن يسمع إلا نباح الكلاب في النهار، وعواء الذئاب في الليل، كان قلبه يرتجف من الخوف من أن تأتيه الذئاب، لكنها لم تأت له في أي مرة، فاطمأن ونام رغم التعليمات الصارمة باليقظة في كل وقت.

حتى تفتحت عيناه للحظة واحدة، تتابعت فيها عليه كل لحظات حياته، قبل أن يشعر بسخونة تتدفق على يده من جنبه الأيسر، كانت دماؤه الساخنة هي التي تفر هاربة من جسده، بعد أن استقرت في مكانها رصاصة، لفظ من بعدها أنفاسه الأخيرة!!

جلس الشيخ في مجلسه كالمعتاد، ليلقي الدرس بين مريديه، كان في فورة غضبه هذه المرة، بعد أن بلغه مقتل كثير من الإخوة المجاهدين مؤخرًا، بعد تجريدات عليهم من جحافل قوات الباطل، وصرخ قائلا: "قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار"، وكيف لا وقتلانا شهداء صديقون، أما هؤلاء فهم جنود إبليس الملاعين، حتى جاءه نبأ مقتل مأمون وهو جالس، فلمعت دمعة سريعة سقطت من عينيه، وانتابته لحظة من الصمت، ثم استطرد قائلا:

"فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه"، وقال: "ادعوا لأخيكم بالتثبيت فإنه الآن يُسأل"!!

تسلم الكشك جندي آخر مكان مأمون، فوجد الراديو الترانزيستور ملقًى في الكشك مختبئًا خلف الحجر، فأسرع وأخذه قبل أن يراه أحد، لكن بطارياته كانت قد فرغت تمامًا، فترك كشك الحراسة كله، وذهب ليشتري بطاريات جديدة، ثم عاد وهو يشغل محطة تذيع الأغاني، ويرفع في الصوت إلى أعلى قدر ممكن!!



(3) رقصة الأراجوز الأخيرة *

---

* في أكتوبر 2013

انتهت الراقصة ذات الجسد الناعم البض من رقصتها الأخيرة، التي دارت مع استداراتها الرؤوس، والتهبت مع تمايلاتها العيون، وزاغت مع غمزاتها الأبصار، فكست بالنشوة عقول الجمهور السكران، تلك النشوة التي زالت مع عودة الأنوار لخشبة المسرح مرة أخرى، وأعلن المذيع للحضور أن هذه هي اللحظة المرتقبة، فسوف يظهر الأراجوز على المسرح، ذلك الأراجوز الذي أضحكهم كثيرًا في صندوقه الصغير، الذي دار به في الموالد والأفراح الشعبية، حتى رفعه الناس لعنان السماء، فالتهبت الأكف وكادت أن تتقطع من التصفيق، وعمت السعادة على كل من في المكان، غير شخص واحد فقط، كان يقف في الكواليس وهو يرتعش من الخوف، وكان هذا الشخص هو الأراجوز نفسه!!

كان المأزق الذي وقع فيه الأراجوز كبيرًا، فبعد أن اعتاد الرقص في الموالد وبين الناس، وكثيرًا ما كان يتبادل معهم النكات والقفشات الخارجة، بمنتهى الحرية، إذا به قد صار عليه الآن أن يرقص كأراجوز فقط، ولكن في محل ترقص فيه النساء عاريات، فوقع في حيرة كبيرة، فكيف لأراجوز من الخشب والقماش أن يرقص وينافسهن، فمن هذا الذي سيلتفت لرقصه من ذلك الجمهور، الذي يعشق النهش في اللحم الأبيض الطري، وكيف سيطلق

القفشات ويتبادلها معهم، وهم من عِلية القوم وقادة المجتمع الكبار، فكان عليه أن يغير من طريقته، التي أعجبت الكثيرين منهم من قبل!!

تم إعداد المسرح على أفضل ما يكون، وكانت كل الإمكانات مسخرة لعرض الأراجوز، حتى يخرج العرض بأحسن صورة، لكن تم إطفاء الأنوار هذه المرة في الصالة، فالعروض فيها ليست كما الموالد وعلى عينك يا تاجر، فغالبية الجمهور لا يرغب في أن يراه أحد، فكيف يظهر القائد وهو يستمتع بالرقص والشراب، وكيف يبدو الرئيس وهو يضحك حتى يستلقي على قفاه خلف المائدة العامرة، وكيف يشاهد المواطنون صفوتهم ونخبتهم وهم يلتهمون صدور الديوك الرومي، مع كئوس النبيذ الأحمر المعتق، بينما لا يجدون هم ما يسد بطون أطفالهم، فأُسقط في يد الأراجوز عندما رأى الظلام يخيم على المكان، ولم يعرف بماذا سيبدأ فقرته، التي تبدأ دائمًا من وسط الجمهور!!

زادت حيرته وقل احتماله، وكاد أن يسقط مغشيًا عليه، عندما رأى الصالة هادئة مع أول فقرة، فلا أحد يصفق ولا حتى يضحك، أعاد بعض الرقصات القديمة، لكن الجمهور قد تغير وصار كأنه غير الجمهور، وأغلبهم لا يعجبون بذلك النوع من الرقص الأراجوزي السانج، فكان لا بُدَّ من التجديد ولا بُدَّ من التمرد، الذي قد يحتاج لشجاعة يظن البعض أن الأراجوز لا يمتلكها!!

استدعى الأراجوز كل مخزون الشجاعة لديـه، والـتي يظـن بأنهـا قـد أُودعت في داخله، وأقنع نفسه بأنه أقوى من كل تخمينات الحاضـرين، فهـذه كانت فرصته الأخيرة، للبقاء على عـرش الـسخرية، في ذلـك المجتمـع الـذي يرفع مـن يحبـه إلى عنـان الـسماء، ويخفـض مـن يكرهـه إلى أسـفل سـافلين، لدرجة أن الناس كانـت تـصفق لـه سـابقاً وهـو يـرقص، أكثـر مـن أي راقـصة مهنتها الرقص، وتحترف التعري حتى من الحياء، وإذا سقط هـذه المرة فـلا يدري ماذا سيحدث له بعد ذلك، فاستعان بشجاعته التي يثق فيهـا أكثـر مـن رقصه، وتحرك نحو الصالة ونزل بين الجمهور، وأخرج بطاريـة كاشـفة مـن بين طيـات ملابـسه، ثـم سـلطها علـى الجالـسين المختبـئين في الظـلام، وبـدأ كالعادة في إطـلاق القفـشات والنكـات، والـسخرية مـن جميـع الحاضـرين بـلا تمييز!!

ظل الأراجوز يكشف ويعري في كل الحاضرين، يعريهم أمـام أنفـسهم قبل الجمهور، لكنهم قد أتوا ليشاهدوا رقـصه آمـنين مطمـئنين، وهـم يثقـون بأن أحدًا لن يشاهدهم من خلف الظلام!!

كانت صراحة الأراجوز فجة، وقفشاته خارجة كالعادة، فمـاذا يفعـل من سبقته راقصة عارية تتمايل بكل مفاتنها، فكان يجب عليه أن يغطي علـى عريها الإغرائي الفج، بعـرض عـارٍ آخـر أكثـر فجاجـة، ورغـم أن ذلـك كـان

يحدث في كل عروضه السابقة، وربما أكثر، لكن أحدًا لم ينتبه لذلك أبدًا إلا الآن!!

ضحك الجمهور كثيرًا هذه المرة، لكن ظل هؤلاء الذين سُلِطت عليهم الأضواء، وظهر منهم ما كانوا يحرصون على إبقائه مستورًا في الخفاء، على صمتهم وتجهمهم، بل إن البعض منهم قد نظر إليه نظرة إشفاق، واعتبروه يرقص رقصة موته الأخيرة، فودعوه الوداع الأخير حتى قبل نهاية عرضه الأول!!

انتهى العرض وسط ذهول الكثيرين، ووسط آراء متباينة، لكن الرأي الغالب كان هو ضرورة الخلاص من ذلك الأراجوز، الذي يبدو أنه سيرهق الجميع، رغم أن شيئًا لم يتغير في الأراجوز، فرقصاته هي نفس الرقصات، وقفشاته هي نفس القفشات، وسقطاته الخارجة هي نفس السقطات، وملابسه المزركشة هي نفس الملابس، لكنها لم تكن على جسده هذه المرة، فقد وجدوها ملقاة بجوار سور المسرح!!

أما الأراجوز نفسه فلم يكن موجودًا، ولم يعثر عليه أحد بعد ذلك، لا في المسرح الجديد ولا حتى في الموالد القديمة، إلا أن البعض يؤكد أنه قد شاهده وهو يخلع رداء الأراجوز نهائيًا، وأكد أن وجهه لم يعد باسمًا كما كان، عندما ظهر في الموالد بين الناس حيث اشتهر ولامس السماء!!



(4) كوابيس الإمام *

* في يناير 2013

استيقظ الإمام من نومه مهمومًا، بعد أن أفزعه كالعادة نفس الكابوس، الذي ظل يراوده في الفترة الأخيرة، لم يكن الوقت وقت صلاة الفجر، ولم توقظه كذلك أصوات ديوك الصباح، تلك الديوك التي اعتادت أن تؤذن قديمًا لتعلن عن قدوم فجر جديد، لكن الإمام أصبح يستيقظ في أيامه الأخيرة على أصوات صراخ وتناحر، ظل يسمعها من بين جموع المصلين الذين كان يؤمهم، فلقد أخطأ الإمام الحافظ المشهود له بالعلم، أخطأ مرة أخرى في تلاوة آيات القرآن! !

اصطف المصلون بعد أن سمعوا تكبيرات إقامة الصلاة، وتقدم الإمام من بين الصفوف في جلبابه الأبيض الناصع، والهدوء يخيم على المكان، ولا تقطعه إلا رنات من حبات مسبحته التي ما زالت تنحدر من بين أصابعه، حتى وصل إلى المحراب ووضع المسبحة على الحصير، والتفت ناحية المصلين وقال "استووا"، ثم استقبل القبلة ونوى وكبَّر، ومن خلفه كبر المصلون كبيرهم وصغيرهم، وعلى رأسهم شيخ البلد وشيخ الخفر أصدقاؤه المقربون، الذين لم يتركوا فرضًا خلفه منذ أن تولى الإمامة، حتى في صلاة الفجر الفاصلة دائمًا ما بين الإيمان والنفاق.

بدأت الصلاة وقرأ الإمام الفاتحة، وردد الناس من بعده "آمين"، ثم قرأ

ما تيسر من القرآن حتى وصل إلى "ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرٍ للجوا...."..، ثم كرر "للجوا.."..كررها أكثر من مرة، حتى رده أحد المصلين وأكمل له الآية"...للجوا في طغيانهم يعمهون"، ثم أكمل الإمام الصلاة وسلم وختم صلاته وانصرف سريعًا، حتى يهرب بأذنيه من همسات المصلين على نسيانه غير المعتاد، لكنه وقف برهة بجوار نافذة المسجد، فسمع همهمات المصلين وهم يتهامسون بالداخل على خطأ الإمام اليوم، فاستيقظ من نومه مفزوعًا، بعد أن أدرك أن هذا هو نفس الكابوس المعتاد، الذي ظل يراوده في كل ليلة.

نهض الإمام من سريره وظل يراجع ويحفظ، حتى سمع أذان الفجر فترك المصحف وتوضأ وذهب إلى المسجد، وتقدم من بين المصلين بعد الإقامة، ونوى وكبر وقرأ الفاتحة، ثم قرأ ما تيسر من القرآن حتى وصل إلى "ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن.."..، وكرر "ولكن.."..كررها أكثر من مرة، حتى رده أحد المصلين وأكمل له الآية"... ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير"، وأكمل الإمام الصلاة ثم ختمها، ثم انصرف بمنتهى السرعة وهو مطأطأ الرأس من الخجل، والمصلون تعلو همساتهم عليه، فوقف ليسمعهم مرة أخرى من خلف النافذة، ووصلت بعض أصواتهم إلى مسامعه، كان بعضهم يرفض مجرد الحديث عنه فهو الإمام الحافظ، وبعضهم يلتمس

له العذر فربما يراجع على حفظه للقرآن مرة أخرى، وبعضهم يعترض على عدم حفظ الإمام، ويطلب استبداله بآخر حافظ ومجيد، حتى تعالت أصوات الجدل في المسجد، فاستيقظ الإمام من نومه مفزوعًا، فقد كان هذا هو نفس الكابوس المعتاد، الذي ظل يراوده في كل ليلة.

نهض الإمام من سريره، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وتناول مصحفه وظل يحفظ ويراجع مرة أخرى، حتى سمع أذان الفجر فتوجه إلى المسجد، وهو يقدم رجلًا ويؤخر الأخرى، وكله رعب وخوف من الخطأ والنسيان، وتقدم الصفوف من بعد الإقامة، وهو يشعر بأن عيون كل المصلين تنظر إليه، وآذانهم لن تحسب عليه نطقه فقط، ولكن أنفاسه كذلك، كانت رجلاه مرتعشتين وعيناه زائغتين، أما عقله فلم يكن معه، أحس بأنه قد نسي كل محصوله من القرآن، فكبر للصلاة بصوت خفيض، صوت سمعه بالكاد من كانوا في الصف الأول، ثم قرأ الفاتحة حتى وصل إلى "إياك نعبد وإياك نستعين.".. ثم كرر "وإياك نستعين.".. كررها أكثر من مرة، حتى رده أحد المصلين "اهدنا الصراط المستقيم...".. فأكمل الإمام الصلاة وسلم، ثم انصرف سريعًا دون أن يختم الصلاة مع المصلين، كان يحس بسهام نظراتهم النارية وهي تكاد تخترق جسده، الذي مرق متواريًا من بين الصفوف، بينما تعالت الأصوات التي اخترقت مسامعه كذلك، وهو يقف يستمع كالعادة من

خلف النافذة، تلك الأصوات التي تأرجحت ما بين مؤيدٍ تام لبقائه، وبين مُصرٍ شديد على عزله، وفي خضم كل هذا الخلاف توارى تمامًا، هؤلاء الذين طالبوا بإصلاح الإمام لنفسه ومراجعته لحفظه، هؤلاء الذين سكتوا نهائيًا لما تعالت الأصوات، وانقلبت إلى عراك وصراخ، حتى استيقظ الإمام مفزوعًا من نومه، فقد كان هذا هو نفس الكابوس المعتاد، الذي ظل يراوده في كل ليلة.

نهض الإمام من سريره، واستعاذ بالله من شيطانه، وذهب واغتسل وتوضأ وتناول المصحف، وأعاد الحفظ والمراجعة مرات ومرات، حتى سمع صوت أذان الفجر وهو ينادي، فظل يراجع مرة أخرى، ويحفظ في السورة التي سيتلوها في الصلاة، وظل طوال الطريق يعيد فيها، وكأنه داخل على امتحان سيكون هو الأقسى في حياته، وهو يسأل نفسه إن كان يحلم هذه المرة أم أنها الحقيقة، لم يعد يستطيع التفريق بين الحلم والحقيقة، ولم يعد يدري أي شيء مما يجري حوله، كان كل ما يشغله هو مراجعة ما يحفظه، ليحفظ به ماء وجهه أمام المصلين، ورغم أن الله يعلم ما يسكن في الصدور، لكن الناس لا يعلمون إلا ما تنطق به الألسن، حتى وصل إلى المسجد ودخل من الباب، فوجد المصلين وقد اصطفوا، وأحدهم قد تقدم ليؤمهم في الصلاة.

تأخر الإمام كثيرًا هذه المرة، حتى لم يعد له مكان في الإمامة، فدخل في الصلاة مع المصلين في آخر صف، وسمع الإمام البديل وهو يتلو عليهم من

مصحف كان مفتوحًا أمامه، "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملـك مـن تـشاء وتنـزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء.."... حتى سلم وانتهـت الـصلاة، فانتفض الإمام من مكانه واقفاً، وألقى نظرة سريعة على الإمام البـديل الـذي أم المصلين مكانه، فلم يعرفه لكثرة الصفوف التي فصلت بينهما، لكـن هيئتـه لم تكن غريبة عليه، وخرج سريعًا من مؤخرة الصفوف، حتى لا يراه أحد!!

تمنى الإمام لو أنه كان في كابوس، مثل الذي كان يراوده في كـل ليلـة، ثم يصحو منه وكأن شيئًا لم يكن، فصار يتحـسس جـسده ويهـز في رأسـه ثـم يضربها في حائط المسجد، الذي وقف خلفه بجـوار النافـذة كالعـادة، لكنـه لم يصحُ من كابوسه هذه المرة، فلم يكن نائمًا كما كان يتمنى، وظـل معلقـا بيديـه في حديد نافذة المسجد، حتى ترامـت إلى مـسامعه كلمـات المـصلين مـن داخـل المسجد، "شيخ الخفر" قد صار هو الإمام!!

(5) المغاوري يضحك أخيرًا *

* في مارس 2012

هذا الرجل لم يضحك أبدًا في حياته، إلا مرة واحدة، ثم حدثت بعدها نكسة سبعة وستين!!

هكذا كانوا يقولون عن "المغاوري"، الذي ظل يجلس لأكثر من أربعين عامًا، في ركنه المفضل المطل على ناصية الشارع، على باب المقهى الأكبر في تلك البلد، وهو يدخن في كرسي "المعسل القص" الذي لا ينتهي منه أبدًا، مع كوب الشاي الحبر الذي يلحسه لحسًا، ولا يترك فيه حتى "التفل"، ولا يكاد يسمع له أحد صوتًا، إلا تلك الطلقات المتتالية من نوبات سعاله المحشرج، ولا يذكر له أحد قط أنه قد نادى على "عرفة" القهوجي، حتى يزيد له جمرة نار أو أن يغير له الحجر، من بعد أن "يبستفه" على هذا المعسل المضروب، كما كان يفعل معظم رواد المقهى، الذين يعرفون جيدًا أن عرفة يغش في المعسل، ويضع فيه مع "التمباك" تلالًا من "مصاصة" القصب، بعد أن يخلطها بالعسل الأسود.

ورغم أن المغاوري كان يعرف جيدًا تلك الحقيقة، بل وكان أحد شهود عملية غش عرفة للمعسل، الذي كان متآمرًا وذا بلاهة كما يقولون، فقد كان يفرد المعسل بعد خلطه بالمصاصة تحت الشمس، وأمام الكرسي الذي يجلس عليه المغاوري مباشرة، بل إنه كان يراه وهو آتٍ يحمل جوال مصاصة القصب

فوق كتفه من العصارة المجاورة للمقهى، ومع هذا كان المغاوري الوحيد الذي لم يعترض على ذلك، مما جعل عرفة يضع جوال المصاصة خلف ظهر كرسي المغاوري رأسًا، ويستند عليه المغاوري دون أن يبدي أي اعتراض، والغريب أن عرفة كان يعلق زلعة الغسل الأسود كذلك أعلى نصبة الشاي، وبجوار صفوف "الجوز" كنوع من الديكور، حتى إن بعض الزبائن من الشباب كانوا يتندرون عليه عندما يطلبون المشاريب، ويقولون له بمنتهى التهكم:

"كرسي معسل يا عرفة، وكتر العسل"!!

ولا يرد عرفة عليهم بالطبع، إلا برده الشهير:

"عسل والنبي عسل"!!

وحتى عندما تنشب بعض المعارك، بين عرفة وبعض الزبائن، كان المغاوري يحرص دائمًا على أن يظل في موقع المتفرج، ولم يطلب منه عرفة في أي مرة أن يشهد معه على جودة المعسل، رغم أن غابة "الجوزة" لم تُفارق فم المغاوري في المقهى، على مدار أربعين عامًا، وكذلك لم يجرؤ أحد من الزبائن على الاقتراب من المغاوري وسؤاله أو استشارته، لِما اشتُهر به بين أهل البلد بأنه رجل "نحس" والبعد عنه غنيمة.

نُسجت حول المغاوري قصص وحكايات كثيرة، كان أغلبها مؤلفًا ومبالغًا فيه، لكن الحكاية الوحيدة التي كانت صحيحة عن المغاوري، فهي

أنه لا يضحك أبدًا، والمرة الوحيدة التي ضحك فيها، أتت بعدها نكسة سبعة وستين، أي أن اعتدال مزاج المغاوري، لم يكن نكسة على من حوله فقط، بل على البلد كلها، ومنذ ذلك التاريخ وقد قرر المغاورى عدم الضحك على أي شيء، لحسن حظ البلد طبعًا!!

انشغل الناس بموضوع نحس المغاوري، وصارت قصصه على ألسنة رواد المقاهي والغرز، وفي جلسات الحشيش والمزاج، والكل يضحك على المغاوري الذي لا يضحك أبدًا، ولكن أحدًا لم يكن يشغل باله أبدًا، بسؤال آخر مهم ومنطقي، وهو عن عمل المغاوري ذاته، ومن أين يتكسب ذلك الرجل قوت يومه، وهو الزبون الدائم على مقهى عرفة، ولم يُصادفه أحد من قبل، وهو يبيع أو يشتري في السوق، وكذلك لم يظهر في أي غيط من الغيطان وهو يزرع أو يقلع أو يسقي، كما أنه ليس من أصحاب الحرف، وليس موظفًا كذلك في أي مصلحة حكومية!!

ظلت قصص نحس المغاوري، تغطي على سره الكبير، الذي لم يحاول أن يعرفه أحد، ويبدو أن المغاوري نفسه قد كان سعيدًا بهذا الغموض، الذي ظل يخيم على شخصيته، وكان على يقين بأن انشغال الناس بمجرد قصة، لن تُقدم ولن تُؤخر في أي شيء، بل إنه كان يستفيد من ذلك فعلًا، في انصراف الناس عن الاحتكاك به، ليظل بعيدًا عن بؤرة أي حدث، من تلك الحوادث

الكثيرة التي تجري في البلد.

ورغم أن الفقر يغلب على معظم أهل البلد، عدا بعض الأثرياء المعروفين، من كبار الملاك وتجار المواشي، وكذلك تجار الصنف الذي لا يستغني عنه مدمنو الحشيش والأفيون، فإن المغاوري كانت تبدو عليه علامات الثراء، ولا يظهر في جلسته في المقهى إلا وهو يرتدي جلابيته الكشمير المكوية دائمًا، ومن فوقها "البالطو" الجوخ الغالي، وتعلو رأسه دائمًا طاقية صوف منسوجة من وبر الجمل، والتي يلف عليها "لاسة" بيضاء محلاوي، أما حذاؤه فلم يكن مجرد "بلغة" مثل باقي الفلاحين، ولكن كان من النوع البنص الجلد، وكان دائمًا ما يلمع.

استيقظ أهل البلد على خبر موت عرفة القهوجي، والذي واروا جثمانه الثرى بعد صلاة الظهر، وكان المغاوري على رأس المشيعين، ثم رجع الجميع وهم يترحمون عليه وعلى أيامه، مشفقين عليه بالطبع من حساب الملكين، عندما يسألونه عن غش المعسل، وما خفي كان أعظم، وتفاءل الجميع خيرًا بأنهم سوف يشربون أخيرًا كرسي المعسل الأصلي من دون مناهدة، بعد أن انتهى الغش تمامًا بموت عرفة الغشاش، ولكن أحدًا لم يسأل نفسه السؤال الأهم، عن ذلك القهوجي الذي سوف يدير المقهى خلفًا لعرفة، الذي كان مقطوعًا من شجرة.

ورغم أن البعض قد توقع أن يتم إغلاق المقهى لفترة طويلة من بعد موت عرفة، لكنهم قد تفاجئوا بالفعل بفتحها في اليوم التالي، وكانت المفاجأة الأكبر في القهوجي الذي وجدوه واقفًا وحده خلف النصبة، ويعطي كذلك لـ"البابور" نفس، فقد كان المغاوري هو من يفعل ذلك كله، بعد أن ترك كرسيه الأثير وغابة الجوزة، وخلع ملابسه الجوخ الغالية وارتضى مختارًا أن يُخدم على الزبائن، فظنوا أن عرفة قد باعه المقهى قبل وفاته، إلا أنهم تذكروا أن عرفة "يرحمه الله" لم يقل لهم يومًا أنه مالك المقهى، بل كان يحرص دائمًا على التأكيد لهم بأنه مجرد قهوجي يعمل فيها فقط، أما المال فله صاحبه.

لم ينشغل الزبائن كثيرًا بموضوع ملكية المقهى، فالمهم أنها تعمل وتقدم لهم الطلبات، وسواءً كان القهوجي عرفة أو حتى المغاوري فهذا لا يهم بالنسبة لهم، خصوصًا أن المغاوري قد بين كرامة للزبائن، بعد أن أزال زلعة العسل وجوال مصاصة القصب، اللذين كان يغش بهما عرفة المعسل، وكان يحمل لهم المشاريب كذلك بمنتهى السرعة، ولكن لما طلب منه بعض الزبائن كرسي معسل، وجدوه مضروبًا مثل معسل عرفة، فاعترض عليه الزبائن، ولكن المغاوري الذي اعترف لهم بأن المعسل مغشوش قد وعدهم بتحسين جودة المعسل في المستقبل، ولكن بعد أن ينتهي المخزون الكبير المضروب الذي

تركه له عرفة، حتى لا تكون المسألة موتا وخراب ديار.

ظل الزبائن ينتظرون انتهاء مخزون العسل المضروب، الذي لم ينته أبدًا، حتى تفاجأ الجميع بعودة المغاوري للجلوس مرة أخرى في ركنه المفضل على باب المقهى على ناصية الشارع، بعد أن وقف "غانم" القهوجي الجديد مكانه خلف النصبة، وبدأت المعارك تنشب مرة أخرى بين غانم وبين الزبائن، بينما ظل المغاوري لا يتدخل كذلك.

عادت زلعة العسل تُعلق من جديد بجانب صف الجوز، وعادت أجولة المصاصة تأتي للمقهى، على كتف غانم القهوجي من العصارة المجاورة، وأكثر الزبائن ما بين ممتعض أو غير مبالٍ بالموضوع، أما من كان يعترض على العسل، ويتشاجر مع غانم عليه، فكان كل ما يقوله له غانم عندما يشتد الشجار، إنه مجرد قهوجي يعمل فقط في المقهى، وإنه عبد مأمور وليس صاحب المال، حتى سألوه ذات مرة عن صاحب ذلك المال، فأشار لهم ناحية الركن الذي يجلس فيه المغاوري، فنظروا إليه فوجدوا وجهه تعلوه ابتسامة على غير العادة، فلم يشغلوا أنفسهم بالسؤال عن مستندات ملكية المغاوري للمقهى، وإنما انشغلوا فقط بابتسامته غير المعتادة، والتي عادة ما تكون بادرة من بوادر نكسة جديدة ستحل على البلد!!

تركه له عرفة، حتى لا تكون المسألة موتا وخراب ديار.

ظل الزبائن ينتظرون انتهاء مخزون العسل المضروب، الذي لم ينته أبدًا، حتى تفاجأ الجميع بعودة المغاوري للجلوس مرة أخرى في ركنه المفضل على باب المقهى على ناصية الشارع، بعد أن وقف "غانم" القهوجي الجديد مكانه خلف النصبة، وبدأت المعارك تنشب مرة أخرى بين غانم وبين الزبائن، بينما ظل المغاوري لا يتدخل كذلك.

عادت زلعة العسل تُعلق من جديد بجانب صف الجوز، وعادت أجولة المصاصة تأتي للمقهى، على كتف غانم القهوجي من العصارة المجاورة، وأكثر الزبائن ما بين ممتعض أو غير مبالٍ بالموضوع، أما من كان يعترض على المعسل، ويتشاجر مع غانم عليه، فكان كل ما يقوله له غانم عندما يشتد الشجار، إنه مجرد قهوجي يعمل فقط في المقهى، وإنه عبد مأمور وليس صاحب المال، حتى سألوه ذات مرة عن صاحب ذلك المال، فأشار لهم ناحية الركن الذي يجلس فيه المغاوري، فنظروا إليه فوجدوا وجهه تعلوه ابتسامة على غير العادة، فلم يشغلوا أنفسهم بالسؤال عن مستندات ملكية المغاوري للمقهى، وإنما انشغلوا فقط بابتسامته غير المعتادة، والتي عادة ما تكون بادرة من بوادر نكسة جديدة ستحل على البلد!!



منهما، فهذا يوارب باب "بيت الله" في وجه القاصدين، وهذا يغلق باب "فرج الله" في وجه الطالبين!!

لم يكن عبد الغني يرد على مصيلحي، إلا بجملة واحدة في كل مرة، ويؤكد له بأن باب الله مفتوح دائمًا، حتى ولو كان باب بيته مواربًا، فما على قاصده إلا أن يدفعه ولو بيد واحدة، ليُفتح له على مصراعيه، حتى ولو حاول منع ذلك شيطان مريد، أما مصيلحي فكان يؤكد أنه هو من يفتح باب فرج الله!! أمام وجه طالبيه بعد أن أغلقته الحكومة، فليس على طالبه إلا التوجه إليه في الكانتين، ليجد ضالته بمشيئة الله وبنفس مصيلحي معه، الذي كان يصر كذلك على أنه المسيطر والمتحكم في كل أمور المصلحة، التي يعمل فيها منذ زمن طويل، رغم أنه لم يكن أكثر من مجرد ساعٍ فيها!!

ولا يعتبر مصيلحي أن لهؤلاء البهوات، الجالسين خلف المكاتب أي دور، إلا في تعطيل طلبات ومصالح الناس، وأنه لولاه هو لما أنجز أي مواطن طلبًا من المصلحة، وما يكاد مصيلحي ينتهي من صلاة الفجر، حتى ينصرف قبل الخمسة عشر مصليًا الذين حضروا للصلاة، والذين يتناقصون يومًا بعد يوم في المسجد، وبعد أن يودع صديقه اللدود عبد الغني، المترصد له دائمًا بالقافية والنكات، فأمامه من العمل الكثير في المصلحة، التي يتجه لبابها مباشرة ويفتحه، ويتركه كذلك مواربًا كما باب المسجد، وسط ضحكات عبد الغني الذي يطل عليه، وهو يغلق باب المسجد بعد انتهاء الصلاة.

يبدأ مصيلحي في ملء البراد الألمنيوم الكبير بالماء، لزوم الشاي وخلافه، ويتركه ليغلي على نار هادئة، يكون خلالها قد انتهى من كنس الحجرات وتلميع المكاتب، وترتيب الملفات والأوراق المتناثرة، ثم يرجع سريعًا إلى مكانه الذي سيرابط فيه بقية اليوم، في دورة مياه الجمهور، بعد أن استقطع جزءًا كبيرا منها، وتحولت بقدرة قادر إلى كانتين عامر بالمشروبات الساخنة والباردة، وأكياس البسكويت والكيك وغيرها، وعلى ترابيزة كبيرة بها درجان كبيران ممتلئان بالدمغات والملفات والورق والأقلام الجاف، يبدأ مصيلحي يومه في تلقي الطلبات من الزبائن!!

وزبائن مصيلحي كانوا نوعين، نوع كان يأتيه مباشرة وهذا يعرف ما يريده، ونوع آخر كان يجلبه مصيلحي بنفسه من أمام المكاتب، وكانت له قدرة غريبة على أن يرى خيبة الأمل في عيون كل خائب، وقد تحطمت سفينة آماله ورُفض طلبه، على صخور من مراوغة الموظفين الجالسين خلف المكاتب، والذين دوخوه السبع دوخات، فما بين هذا وذاك يتوه صاحب الطلب ما بين دروب لا يعلمها إلا خبير، وهنا يظهر له ذلك الخبير، فيظن أنه قد وجد ضالته المفقودة بين هؤلاء الضالين، عندما يصطحبه الخبير مصيلحي إلى الكانتين!!

وهناك يستقبله كما نسمة عصاري، تمر على جبهته المعروقة في حر صيف قائظ، ويسحب له كرسيًا بجوار براد الشاي الذي يغلي، كما يغلي صاحبنا من كثرة اللف والدوران، فيقدم له مصيلحي كوبًا من الماء البارد، ليبل

به ريقه الذي جف، ويطمئنه بأن كل شيء له حل، وكل إدارة في المصلحة ولها سكة، بعد أن يسأله عما كان يريد، ولمن من الموظفين بالضبط قد توجه، وكيف أنه كان يجب عليه أن يتوجه للأستاذ "عبد العاطي" بدلًا من الأستاذ "عبد الراضي"، ثم يناوله كوب الشاي الذي لم يطلبه والحساب يجمع، بعد أن يأخذ منه كل الورق، ومعه ثمن الشاي الذي لن يشربه كل من عبد العاطي وعبد الراضي للموافقة على طلبه، ثم يغادر الكانتين وهو يقول له عبارته الأثيرة "فرج الله بابه مفتوح"، حتى يعود له بعد دقائق قصيرة، والابتسامة تزين وجهه الذي تعلوه علامة الصلاة، وقد حمل له كل الأوراق مزينة كذلك، بجميع الأختام المطلوبة، فقد نزل فرج الله وتمت المصلحة!!

لم يكن مصيلحي يقبل الحرام أبدًا على نفسه، هكذا كان يردد دائمًا بين جلسائه، أما ما يخص هؤلاء الموظفين، فهو شأنهم فقط، وكل نفس بما كسبت رهينة، ورغم أنهم في نظره مرتشون، لكن كل هذا لا يعنيه في أي شيء، فهو مجرد "واسطة خير"، وبدونه لن تتم أي مصلحة، وبدونه كذلك لن تعمل المصلحة، ويؤكد أن كل ما يتقاضاه من زبونه، هو ثمن كوب الشاي فقط، ثم القهوة وزجاجات المياه الغازية والعصائر والبسكويت، حسب الوقت الذي يستغرقه تخليص الطلب، بجانب حساب الورق والقلم والملف الكرتون "أبو نحاسة"، والدمغة التي لم يكن ليجدها المواطن إلا في بوستة وسط البلد، ويحرص عندما يجمع الحساب من الزبون في النهاية ألا يتقاضى منه ثمن

جلوسه على الكرسي، فهذا هو حق ضيافته، ثم يأخذ الحساب وهو يتمتم بالدعاء "الحمد لله الذي منحنا الطيب الذي رُزقناه وجنبنا الخبيث الذي حملناه"، حتى يسمع المؤذن وهو ينادي لصلاة الظهر.

يهرع جميع الموظفين للصلاة، ويبدون أكثر حرصًا عليها من أي وقت آخر، حتى تمتلئ بهم المصلى المخصصة في المصلحة، لكن وحده مصيلحي هو الذي كان يصلي خارج المصلحة، فله مسجده الأثير المواجه للمصلحة، حتى ولو قابل هناك صديقه المشاكس عبد الغني، الذي لم يكن يسلم من لسانه أبدًا، والذي يبدو أحيانا أطول من ذراعه، تلك الذراع التي تعجز عن فتح ضلفتي باب المسجد، لكنه قد خيب ظنه هذه المرة، فقد وجد باب المسجد مفتوحًا للمصلين على مصراعيه.

كان المصلون أكثر عددًا هذه المرة، ربما لأنها صلاة الظهر، لكن الغريب أن أغلبهم كانوا من موظفي المصلحة، لحق مصيلحي له مكانًا في الصف الأخير، حتى سلم ونظر يمينه ويساره، فوجد حوله الأستاذ "عبد الراضي" والأستاذ "عبد العاطي"، فمد يده لهما وهو يقول "تقبل الله يا أساتذة"، فرد عليه كلاهما "منا ومنكم يا مصيلحي"، ثم انصرف ليخرج من المسجد ليقابل"عبد الغني" الواقف على الباب، والذي قال له "الموظفين كتير النهارده يا مصيلحي"، فرد عليه مصيلحي قائلا "الظاهر محدش عاد بيصلي في المصلحة"!!

كان عامرًا في الماضي البعيد.

كانت إيجيليانا هي الفتاة الحلم، الذي كان يحلم به كل شباب البلد، والذين بدأ أكثرهم يشيخ خلال سني غيبتها الطويلة، إلا أن صورة إيجيليانا لم تكن لتنمحي من ذاكرة معظمهم، وكيف تُمحىَ وهي تحمل في طياتها عينيها العسليتين الرائقتين ونظرتها الآسرة الساحرة، والتي تتوارى خلف تدافع خصلات شعرها البني، المنسدلة على جبينها الأبيض المتورد، لترسم مع ابتسامتها العذبة المستحيلة، لوحة مبدعة تجمع بين إطلالة شمس الصباح، عندما تشرق في خجل على حبات الندى المتناثر فوق الغصون، وبين قسوة شمس الغروب عندما تغادر، لتترك الدنيا في ظلام مشتاق لعودتها مرة أخرى، وهكذا كانت إيجيليانا دائمًا، خليطًا رائعًا ما بين سحر الشرق بكل أسراره، وطموح الغرب بكل إبهاره، ما بين أبيها المصري الصعيدي الأصل والبشرة، وأمها الأوروبية ذات العيون الزرقاء والشعر الأشقر، والتي ماتت منذ زمن طويل، ولم يتزوج أبوها من بعدها، ولا حتى اشتهى من دونها نساءً، وكان كثيرًا ما يقول عنها: بأنها قد كانت له كل الدنيا، ومن يعاشر الدنيا، لا يجب أن يدخل من بعدها أي دنيا!!

انتشر خبر عودة إيجيليانا، انتشار البرق المضيء المبهر، في سماء البلد المظلمة الحالكة، فلم تكن إيجيليانا مجرد حلم كان يستعصي على

الجميع، لكنها كانت القلب الذي ظل يحب ويحتوي الجميع، حتى ظن كل شاب وقتها أنه حبيبها الوحيد، والمفضل على الجميع، أما من أحبها سواه فكان يعتبرهم مجرد متوهمين لهذا الحب، فعيون إيجيليانا الناعسة لم تكن تفرق أبدًا في النظرات، ما بين هذا أو ذاك، أما نسمات العصاري فكانت كفيلة بتوزيع تمايلات خصلات شعرها المنسدل على كتفيها ذات اليمين وذات الشمال، ليظن كل من ينظر إليها بأنها تميل بشعرها نحوه، لكن أحدًا منهم لم يكن ليجرؤ على التقدم ليطلب الزواج منها، فقد كان أبوها دائمًا ما يرفض كل خطابها، ويعلن وبكل صراحة بأنه يضن بابنته الجميلة، أن يكون نصيبها في أي من بيوت البلد المبنية من الطين!!

كان والد إيجيليانا رجلًا غنيًا بالفعل، فقد كان تاجرًا كبيرًا للقطن، ويبدو هذا الغنى من هيئة بيته الكبير، ذي الباب العالي والترسينة ذات المشربيات المطعمة بالزجاج الملون، والذي بناه خصيصًا بعد زواجه من أم إيجيليانا، حتى تشعر كأنها تعيش في قصر من قصور العصور الوسطى، وأنفق على بنائه معظم ما يملك حتى صار عجيبة العجائب في البلد، وبنى بجانبه الجامع الكبير لأهل البلد، حيث كان يلتقي فيه مع كبار وأعيان البلد، ورغم أنه لم يكن في الأصل من أهل البلد، فإنهم كانوا يقيمون لرأيه وزنًا كبيرًا، ويوكلون له الأمر في إدارة معظم شئون البلد، والكثير من أمور

كان عامرًا في الماضي البعيد.

كانت إيجيليانا هي الفتاة الحلم، الذي كان يحلم به كل شباب البلد، والذين بدأ أكثرهم يشيخ خلال سني غيبتها الطويلة، إلا أن صورة إيجيليانا لم تكن لتنمحي من ذاكرة معظمهم، وكيف تُمحى وهي تحمل في طياتها عينيها العسليتين الرائقتين ونظرتها الآسرة الساحرة، والتي تتوارى خلف تدافع خصلات شعرها البني، المنسدلة على جبينها الأبيض المتورد، لترسم مع ابتسامتها العذبة المستحيلة، لوحة مبدعة تجمع بين إطلالة شمس الصباح، عندما تشرق في خجل على حبات الندى المتناثر فوق الغصون، وبين قسوة شمس الغروب عندما تغادر، لتترك الدنيا في ظلام مشتاق لعودتها مرة أخرى، وهكذا كانت إيجيليانا دائمًا، خليطًا رائعًا ما بين سحر الشرق بكل أسراره، وطموح الغرب بكل إبهاره، ما بين أبيها المصري الصعيدي الأصل والبشرة، وأمها الأوروبية ذات العيون الزرقاء والشعر الأشقر، والتي ماتت منذ زمن طويل، ولم يتزوج أبوها من بعدها، ولا حتى اشتهى من دونها نساءً، وكان كثيرًا ما يقول عنها: بأنها قد كانت له كل الدنيا، ومن يعاشر الدنيا، لا يجب أن يدخل من بعدها أي دنيا!!

انتشر خبر عودة إيجيليانا، انتشار البرق المضيء المبهر، في سماء البلد المظلمة الحالكة، فلم تكن إيجيليانا مجرد حلم كان يستعصي على

الجميع، لكنها كانت القلب الذي ظل يحب ويحتوي الجميع، حتى ظن كل شاب وقتها أنه حبيبها الوحيد، والمفضل على الجميع، أما من أخبها سواه فكان يعتبرهم مجرد متوهمين لهذا الحب، فعيون إيجيليانا الناعسة لم تكن تفرق أبدًا في النظرات، ما بين هذا أو ذاك، أما نسمات العصاري فكانت كفيلة بتوزيع تمايلات خصلات شعرها المنسدل على كتفيها ذات اليمين وذات الشمال، ليظن كل من ينظر إليها بأنها تميل بشعرها نحوه، لكن أحدًا منهم لم يكن ليجرؤ على التقدم ليطلب الزواج منها، فقد كان أبوها دائمًا ما يرفض كل خطابها، ويعلن وبكل صراحة بأنه يضن بابنته الجميلة، أن يكون نصيبها في أي من بيوت البلد المبنية من الطين!!

كان والد إيجيليانا رجلًا غنيًّا بالفعل، فقد كان تاجرًا كبيرًا للقطن، ويبدو هذا الغنى من هيئة بيته الكبير، ذي الباب العالي والترسينة ذات المشربيات المطعمة بالزجاج الملون، والذي بناه خصيصًا بعد زواجه من أم إيجيليانا، حتى تشعر كأنها تعيش في قصر من قصور العصور الوسطى، وأنفق على بنائه معظم ما يملك حتى صار عجيبة العجائب في البلد، وبنى بجانبه الجامع الكبير لأهل البلد، حيث كان يلتقي فيه مع كبار وأعيان البلد، ورغم أنه لم يكن في الأصل من أهل البلد، فإنهم كانوا يقيمون لرأيه وزنًا كبيرًا، ويوكلون له الأمر في إدارة معظم شئون البلد، والكثير من أمور

البلد لم تكن لتمر دون استشارته وأخذ نصيحته، حتى إن الكثيرين كانوا على يقين بأن أي عمدة جديد للبلد، لم يكن يتم اختياره من قبل مأمور المركز إلا بعد أن يحدده والد إيجيليانا أو يوافق عليه، ولهذا كان أعيان وكبار البلد يتجمعون في بيت إيجيليانا في كل ليلة، لكن شباب البلد كانوا يتجمعون حول البيت لأسباب أخرى تمامًا!!

كان تناول شربة ماء باردة، من القلل القناوي المتراصة أمام بيت إيجيليانا، والتي كانت تملأها بنفسها في عصر كل يوم، هو غاية المراد من رب العباد، لهؤلاء الشباب العزاب العطاشى من أهل البلد، ورغم أن ملء هذه القلل كان من عادة أهل البلد في شهر رمضان فقط، فإن إيجيليانا كانت تحرص على ملئها في كل شهور السنة، ولم تكن تكتفي بملئها بالماء العذب النقي فقط، لكنها كانت تحرص على خلط مائها بماء الورد، ثم تضع نصف ليمونة في رقبة كل قلة، حتى أصبحت شربة الماء من قلل إيجيليانا، لها مذاق آخر خصوصًا في ليالي الصيف الحارة، أما الأطيب من شرب الماء فكان خروج إيجيليانا عليهم لأي سبب، ليحظى الشارب العطشان بالماء والوجه الحسن، أما الخضرة فكانت في قلب إيجيليانا البريء ونظرتها البكر، وابتسامتها الساحرة التي تجعل الناظر إليها يجزم بأنه هو الوحيد، الذي خطف قلبها الصغير، ووضعه بجوار قلبه العامر بحبها!!

ورغم كل هذا الافتتان بإيجيليانا من شباب البلد، فإنها لم تكن محل غيرة من باقي بنات البلد، وحتى من الجميلات الفاتنات منهن، بل على العكس من ذلك تمامًا، فقد كانت على صداقة وطيدة بمعظمهن، وتجاملهن جميعًا في الأفراح والأتراح، وكانت تستطيع أن تجعل كلا منهن تظن في نفسها، أنها صديقة إيجيليانا الوحيدة، والأكثر اقترابًا منها، حتى إن إيجيليانا كانت أول من يصله خبر خطبة إحدى الفتيات، ثم ينتشر الخبر بعد ذلك من بيتها لباقي بيوت البلد، وكانت إيجيليانا هي أولى المدعوات لأعراس البنات، وتحمل بنفسها طبق الحنة وتبدأ حفلة تحنية العروس، ثم تتعهدها بالتجميل ورسم الحواجب وتشذيب الأهداب، كما تعلمت من أمها اليونانية، حتى تبدو العروس هي الأجمل في عيني فارسها القادم الذي سيخطفها على حصان، ثم تسمع إيجيليانا العبارة المكررة على أذنيها من كل عروسة، وفي كل فرح تحضره وتجامل فيه "عقبالك يا إيجيليانا"، إلا أن هذه الأمنية لم تكن أبدًا تتحقق لإيجيليانا!!

مات والد إيجيليانا فجأة، وأصبحت من بعده عزباء وحيدة، فتكاثر الخطاب على باب بيتها، فقد كان في موت أبيها فرصة للجميع، حتى يُعيدوا الكرَّة ويتقدموا للزواج منها، فيحظى الفائز بها وحده بجمالها الآسر، ويحظى وحده كذلك بما ورثته عن أبيها من أطيان وأموال، لكن الغريب أن

ايجيليانا ذاتها، ظلت ترفض خطابها تمامًا كما كان يفعل أبوها، حتى اكتشف الجميع في صباح أحد الأيام، أن بيت إيجيليانا قد تم إغلاقه بالضبة والمفتاح، وإيجيليانا ذاتها قد اختفت تمامًا، ولم يعد يعرف لها أحد أي طريق جُرة!!

تكاثرت الأقوال عما جرى لإيجيليانا، وما هو مصير أموالها وأطيانها كذلك، فمنهم من قال بأنها قد سافرت لأهل والدتها في اليونان، ومنهم من قال بأنها قد سافرت لأهل والدها في الصعيد، ومنهم من قال بأنها قد تزوجت من مأمور المركز رغمًا عنها، وطبقًا لوصية قد تركها له أبوها، وأنها أصبحت محبوسة الآن في بيته، ومنهم من قال بأنها قد لافت على أحد الشباب الغرباء، وخافت من انتقام أهل البلد منها، إلا أن أحدًا لم يستطع تقديم الدليل على صدق روايته، حتى دارت الأيام وتعاقبت السنون، والتي كانت كفيلة بنسيان الموضوع برمته، حتى عادت إيجيليانا أخيرًا!!

ورغم أن كل شيء قد تغير في البلد، فإن تجدد الحنين لإيجيليانا، قد أعاد عقارب الساعة إلى الوراء، وبدا وكأن الزمن قد توقف برهة، عند ذلك اليوم الذي غابت فيه، فعادت الظهور المحنية إلى استقامتها قائمة شامخة، والوجوه المكرمشة إلى نضارتها وألقها، أما الشعيرات البيضاء فقد توارت، خلف ظلام ليلٍ بات ينتظر فجرًا جديدًا، ليجيء مفعمًا بالأمل والرجاء والثقة

في المستقبل، فقد عادت إيجيليانا، وعادت معها كل الأحلام!!

وبدأ الجميع يتساءل في لهفة، هل ما زالت إيجيليانا كما هي؟!! هل ما زالت بضة بيضاء متوردة الخدود؟!! وهل ما زالت ابتسامتها تنثر الندى فوق زهور الربيع لتتفتح؟!! هل ما زالت إيجيليانا كما هي إيجيليانا؟!!

تكاثر الخطاب مرة أخرى على باب إيجيليانا، حتى إنهم قد بدءوا في الشجار أمام بابها المغلق، أحدهم يريد أن يتزوج إيجيليانا، حتى تظل له هو وحده في البيت ويغلق الباب عليها، والآخر يقول بأنه سيتزوجها لأنها نموذج يجب أن تقتدي به كل بنات البلد، أما الثالث فيقول بأنه سيجعل من أموال وأطيان إيجيليانا التي أصابها البوار، خيرًا يعم على كل أهل البلد، أما رابعهم فيقول بأن إيجيليانا من حقه هو فقط، وأن أول شيء سيفعله بعد أن يتزوجها هو تغيير اسمها هذا الغريب "إيجيليانا"، لأنه من أسماء الكفار الذين لا يجب أن نقلدهم في كل شيء، وسوف يسميها باسم من أسماء السلف الصالح درءًا للفتنة، وخامس وسادس وكثيرون غيرهم، كلٌ كان يريد إيجيليانا له وحده فقط، حتى علت أصواتهم على باب إيجيليانا، فسمعوا صرير الباب وهو يفتح مرة أخرى، ليروا للمرة الأولى إيجيليانا عن قرب، من بعد غيبتها الطويلة!!

تعلقت العيون للحظة على وجه وجسد إيجيليانا، وسادت لحظات من

الصمت، حتى بدأت العيون تقل من حول إيجيليانا رويدًا رويدًا، بعد أن شرع كل منهم في الانصراف الواحد تلو الآخر، فقد كانت طلتها الأولى وهي تفتح الباب يغلفها شوق الغياب، فيطغى بزيفه على ما فعلته بها الأيام، وقد فعل معها الزمان فعلته، التي يفعلها في كل بني آدم، ودارت عليها الرحى القاسية التي تطحن ولا ترحم، فبدت أقصر من المعتاد، بعد أن انحنى ظهرها قليلًا، وزاغت عيناها ولم يعد فيهما ذلك السحر واللمعان القديم، أما شعرها البني فقد اشتعل ببعض خصلات بيضاء، تناثرت على الجبين الذي نقشت عليه التجاعيد آثار زمن جميل مضى، لكن أحدًا من هؤلاء لم تلحظ عيناه شيئًا آخر غريبًا، أدركته عينا شاب واحد كان واقفًا بينهم!!

لم يكن غريبًا أن توافق إيجيليانا سريعًا، على زواج ابنتها التي أنجبتها من زوجها، الذي تزوجته أثناء فترة غيابها، من هذا الشاب الذي كان واقفًا بين مريديها، عندما تقدم إليها بلا تردد ليطلب يد ابنتها منها، ليحظى وحده بالفتاة وسط ذهول الجميع واستنكارهم، فقد كانت الفتاة صورة طبق الأصل من أمها، ولا تقل جمالًا عنها في شبابها، ورغم أنها كانت تقف بجوارها عندما فتحت الباب، لكن لم تكن تلحظها عيون الخُطاب، من كبار السن وذوي الظهور المحنية، بعيونهم قصيرة النظر التي كانت تنظر فقط على إيجيليانا، التي طالما تمنوها ولم يصلوا إليها في يوم من الأيام، فعاشت

في أحلامهم فقط، وعادوا ليطلبوها بعد أن أرهقتها قسوة الأيام، كانوا فقط ينظرون على الماضي، الذي رحل ولن يعود!!

(8) فندق المحروسة للأمن المركزي *

* في أغسطس 2008

لم تكن مجرد شجاعة مني أن أعود لنفس المكان، من بعد مرور كل تلك السنوات، لكنه ربما يكون الحنين إلى الماضي، حتى ولو كانت لي فيه بعض الذكريات المؤلمة، ولكن تمر السنوات بحلوها وبمرها، ولا يبقى لنا من أيامها إلا بقايا من عطر يتوارى، خلف زخات من عرق تساقط من جبهتنا المتعبة في طريقها الطويل، لتظل الصورة الفيروزية الباهتة التفاصيل، هي التي تلقي بطرف شالها الحريري ليلمس جدران القلب المشتاق، لكل لحظة مرت علينا ولن تعود، من لحظات الماضي البعيد الجميل!!

كانت الظروف واحدة، والعرق المتصبب من جبهتي كذلك واحد، في هذا الطقس الحار الرطب في منتصف شهر أغسطس، في نفس المدينة الساحلية التي تلقيت فيها تعليمي الجامعي، وقد كان الطلب واحدًا كذلك، وهو المبيت في فندق لمجرد ليلة واحدة فقط، ولم يكن هناك خيارٌ أمامي إلا في هذا الفندق، الذي كان متميزًا فعلًا، وقد مرت أكثر من خمسة عشر عامًا فقط لا غير، فهل يا تُرى سوف أجده ما زال كذلك، بعد تلك المدة التي كانت هي الفارق ما بين زيارتي الأولى للمدينة، وزيارتي الأولى للفندق، والتي كانت الأخيرة أيضًا!!

وصل بي القطار متأخرًا عن موعده كالعادة، بعدما أغلقت كل المكاتب أبوابها مبكرا عن موعدها أيضًا كالعادة، وكان علي أن أبحث عن مكان أبيت

فيه لصباح اليوم التالي، حتى أضم أوراق أولى خطواتي في التعليم الجامعي، إلى قائمة أولويات الموظفين الصباحية، بجانب أكواب الشاي وسندوتشات الفول بالطحينة، وحتى تقترب أولوية التوقيع على أوراقي، من أولوية حل الكلمات المتقاطعة في جريدة الجمهورية التي تفترش المكتب!!

لم يكن العثور على فندق مهمة شاقة على الإطلاق، ففي تلك المدينة الساحلية ذات التاريخ العريق في الماضي، كانت الفنادق والبنسيونات ذات الغرف الواسعة والأسقف العالية بمبانيها ذات الواجهات الإيطالية الكالحة، والتي ظلت جزءًا أصيلًا مما تبقي من هذه العراقة، لكن الفندق الذي عثرت عليه بالقرب من مبنى الجامعة، كان من فنادقها الحديثة نوعًا ما، والذي جعلني أقدم رجلًا وأؤخر أخرى، وأنا أتوقع أن يكون ثمن قضاء ليلة فيه، أبعد من حدود احتمال محفظة طالب ثانوي سابق، يبدأ في طريق "الفشخرة" الجامعية الطويل!!

ولكن خاب ظني، ولم تنتهك عذرية محفظتي، وبقي فيها ما يحفظ لها الحياة يومًا آخر ببقايا الشرف، وبجنيهات قليلة لأشتري بها بعض الطعام، حتى أسد رمقي وأسترد معه نفسي المقطوع، من الشعبطة وكثرة المروق بين الأجساد في قطارات سكك حديد مصر "المكحكحة"، وتحت حر شمس الصيف الحارقة، فكان اللقاء الرومانسي الناعم بيني وبين الدش البارد

في حمام الغرفة، مع رشات أمطاره الباردة التي بدأت تداعب شعر رأسي، حتى وصلت إلى قمة الانتعاش والمتعة، والتي لم يُخرجني منها إلا تلك الدقات اللعينة القاسية التي سمعتها على باب الغرفة، وكأنها كانت تدق على رأسي فاستشطت غضبًا!!

كان تأخري في فتح الباب كافيًا جدًا، لكي يستشيط الواقف في الخارج غضبًا كذلك، ولكن لم يكن هناك بدٌّ من ارتداء ملابسي وليكن ما يكون، ولما فتحت الباب بدأت أشعر بقصر قامتي لأول مرة، مقارنة بما رأيته أمامي من أطوال لستة أبدان، يضطر معظمهم لأن يحني رقبته كثيرًا، حتى يدخل من باب الغرفة، ولكن الشيء الأغرب من قاماتهم الطويلة الغريبة علي طبعًا، كان هو زعيمهم الذي فاقهم في الطول، والذي شرع في تأنيبي، لأنني لم أفتح له الباب بسرعة، فاستجمعت بقايا شجاعتي التي قررت أن تهرب وتتركني وحدي، أواجه كل هؤلاء، بسبب واضح جدًا ومنطقي ويقف أمامي، وصرخت في وجهه بقسوة مصطنعة "إنت مين يا بني آدم إنت"!!

كانت قلة خبرتي بالحياة في هذه السن الصغيرة هي التي جعلتني لا أعرف ماهية هذا "البني آدم"، وهي كذلك التي جعلتني أصفه بهذه الصفة، التي جعلته ينتفض غضبًا كمن لدغه ثعبان ووسط دهشة من مرافقيه، ربما لأنه لِم يكن كذلك لا أدري!! فقد كان بالفعل ضابط "أمن دولة"، وقد أتاني

وسط خمسة من مساعديه ومخبريه!!

هكذا قال لي بلهجة آمرة عندما طالبني بالبطاقة الشخصية، فأيقنت بأن ليلتي اللعينة التي بدأتها بدش بارد، لن تمر على خير أبدًا، وربما تنتهي بي على أسفلت الحجز البارد أيضًا، فمع هذا الذي كنت أظنه "بني آدم" في هيئة شيطان، قد ظهر لي في النهاية أنه ضابط من "حبايبنا الحلوين" ولكن في هيئة "ملكي"، ليترك لي مهمة الوصول إلى "كراماته" بعد ضرب الأخماس في الأسداس، لمعرفة شخصيته الرسمية رجماً بالغيب، بين خمسة من مرافقيه وسادسهم هو!!

مرت دقائق الصمت رتيبة وثقيلة، وهو يتفحص في بطاقتي الشخصية، ملقيًا علي تعليقاته الساخرة، عن هبتي الغريبة في خلقة جنابه بلا أي داعٍ لذلك، وكيف لا أفتح لضابط مباحث، وأتركه هكذا يرن وهو يدق على باب غرفتي الضعيف، والسبب مجرد تفتيش عادي لحفظ الأمن!! كما قال لي، لأننا كطلبة محل شبهة دائمًا!! وكأن علي أن أسأل السماء عندما تمطر فوقي من دش الحمام، عن ذلك الهاتف الداعي على باب الغرفة، لأهرع وأفتحه لجنابه وأنا عاري الجسد، لأترك له مهمة تجفيف جسمي بالفوطة، والشرطة في خدمة الشعب العريان، كإحدى مهمات حفظِ الأمن من جنابهم، قبل بدء العام الدراسي الجامعي، الذي يبدأ بالطبع بجمع المشبوهين من

الطلاب، وقرص آذان الوارد الجديد من أمثالي!!

وبعد توسلات من موظف استقبال الفندق، الذي أتقن تمثيلية حرصه على مصلحتي، وكأنه لم يدلهم على غرفتي ومن دون أي صفعات على قفاه، حتى تنازل حضرة جناب الضابط عن حقه في مرمطة كرامة جنابه، لما أنعمت عليه بلقب "بني آدم"، وظل كما هو "بني مباحث"، وتنازل أيضًا عن اصطحابي معه للقسم، وفي الأقسام يحلو الكلام، لكنه قد أصر على أن يأخذ بطاقتي الشخصية معه، ربما للذكرى أو لعرضها على أمن الدولة الأعلى، مطالبًا إياي بالذهاب لتسلمها من القسم في اليوم التالي، وقد كان له ما تمنى فقد ذهبت فعلاً في اليوم التالي، ولكن إلى بلدتي البعيدة، حتى أستخرج بطاقة شخصية جديدة بدل فاقد، وحتى لا أصبح أنا شخصيًا من المفقودين "ويا دار ما دخلك شر"، لأترك بطاقتي لدى جنابه حفاظًا على الأمن العام، من أي مخططات إرهابية ربما حتى الآن!!

لم تكن لدي الشجاعة الكافية، للمرور على الفندق طوال السنوات التي قضيتها في دراستي الجامعية، فقد ظل يراودني شعور مخيف، بأن بطاقتي الشخصية القديمة التي غيرتها أكثر من مرة، قد ظلت معلقة على باب الفندق، وقد كتب عليها "ابحث مع الشرطة"، أو أنها ظلت موضوعة في قوائم ترقب الوصول لموظفي الاستقبال، باعتباري قد صرت الإرهابي الأكثر

خطرًا على أمن السياحة والفنادق، بفراري المريب من حضرة سعادة الضابط، الذي كان يترقب وصولي للقسم في اليوم التالي لتسلم بطاقتي الشخصية الضعيفة، لأقضي ليلة زفافي الأولى مع مخبريه الأقوياء، عقابًا لي على تكدير الأمن العام، بتكدير مزاج جنابه بالوقوف على باب غرفتي، ثلاث دقائق كاملة وأنا أرتدي ملابسي!!

ولا أدري لماذا وسوس لي شيطان شجاعتي مرة أخرى، بعد أن مرت أكثر من خمس عشرة سنة، لأذهب مختارًا في ذلك اليوم المشابه للماضي، لأبيت في نفس الفندق، بعد أن قررت ترك البلد بأكملها والسفر للخارج، وكان علي استخراج شهادة من جامعتي، فوصلت لأجد كل المكاتب مغلقة مبكرًا كالعادة، فقررت المبيت في الفندق المجاور للجامعة ولكن ليس كالعادة، وقد كانت فرصة سانحة حقًا، حتى أمحو عار جبن الأيام الخوالي، وبحثت عن شجاعتي الضائعة مني منذ زمن، لأفعلها وليكن بعدها ما يكون!!

لم أكد أنتهي من استجماع كل مخزون شجاعتي، والتأكيد على نفسي بأن الأيام دول، وقد ماتت ناس وحييت على وجه الأرض ناس، والمؤكد أن الضابط الذي فررت منه ذات يوم في الماضي، قد بات يجلس الآن على أقرب مقهى ليدخن الشيشة، وهو ينعى مع كل نفس من دخانها أيام عزه وجبروته المفقودة، بعد أن ناله من الميري فقط ترابه، ليرقد التراب متراكمًا على قفاه،

وكما أنني قد صرت من المعدودين في مهنتي، فمن المؤكد أنه قد صار من المنسيين في مباحثه، حتى هممت بدخول الفندق الذي كان مبناه ما زال على حاله، وإن أصابه كثير من الإهمال، وبدا أنه فلم يعد فندقًا من الأساس!!

كان كل شيء قد تغير في الداخل، فلم يعد هناك استقبال ولا صالونات، وإنما ردهة كبيرة تمتلئ بمجموعة كبيرة من جنود الأمن المركزي، ولا يبدو أنهم في مهمة أمنية أو ما شابه، فقد كانوا يجلسون بمنتهى الأريحية في ردهة المكان، وبعضهم يلبس ملابس الرياضة، وهم يلعبون الدومينو والطاولة والورق، مع وجود كانتين كبير في نهاية الردهة، يبيع البسكويت والمأكولات والعصائر، وبراد كبير يغلي فيه الماء باستمرار لعمل الشاي!!

بدا لي أنني قد دخلت إلى مكان غريب فعلًا علي، وتحولت كل العيون لتنظر إلي بمنتهي الريبة، فقطعت شكهم وريبتهم بالسؤال عن الفندق وماذا جرى له، فضحكوا جميعًا على سؤالي، وقالوا لي بأن المكان قد صار استراحة لجنود الأمن المركزي!!

تركت الفندق سابقًا، واستراحة الأمن المركزي حاليًا، وأنا كلي ثقة بأن هذا هو الوقت المناسب، حتى أرحل عن هذه البلد، بعد أن تحولت مبانيها التي كانت "محروسة" من الأمن، إلى أماكن "مسكونة" كليًا بهم!!

(9) من الذي قتل الإمام؟!! *

* في مايو 2012

طال سجود المصلين، في الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة، في المسجد الجامع الكبير، ورغم شدة وورع وتقوى ذلك الإمام، فإنهم لم يعتادوا منه الإطالة في السجود إلى هذا الحد، فقد امتد سجوده لأكثر من نصف ساعة، حتى نفد صبر المصلين، ونفد كذلك كل محصولهم من الأدعية والتسبيحات، التي كرروها أكثر من مرة، حتى بدأت تعلو أصوات بعض المصلين المكتومة الصدى، في حصير الجامع المتهالك، وهي تتعالى بتكبيرات يائسة، عسى أن يسمعها ذلك الإمام، فيفيق من خشوعه غير المعتاد، أو ربما من غفوته في سجدته هذه التي طالت أكثر من اللازم، إلا أن الإمام الساجد لم يستجب لأي من تلك التكبيرات اليائسة!!

كان الموقف حرجًا للغاية، ففي تلك البلدة المؤمنة الكبيرة، التي لا يوجد فيها إلا هذا المسجد الجامع الكبير، وبعض الزوايا الصغيرة الأخرى المتناثرة، والتي لا تصلح لإقامة صلاة جمعة فيها، فكان من الصعب على أي من أهل البلد، أن يمر مرورًا عابرًا على الجامع في مثل هذا التوقيت الحرج، وقبل انتهاء الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة، حتى لا يراه المصلون بعد أن يسلموا في الصلاة، فينعتوه بعدم إدراك صلاة الجمعة، التي لا تجوز من دون الاستماع للخطبة، فما بالك بمن يلحقها في الركعة الأخيرة، فيراه المصلون

واقفًا في الصف الأخير لمجرد إثبات الحضور، فينضم إلى زمرة المنافقين الـذين لا يقومـون للـصلاة إلا وهـم كـسالى، في بلـد يعـرف سـكانها بعـضهم الـبعض وبالاسم؟!

ورغم أن الجامع الكبير، قد اشترك في بنائه كل أهـل البلـد، ووضـعوه في وسط البلد تمامًا، حتى يكون قريبًا من القاصي والداني، فإنـه لم يكـن اسمًـا على مسمى أبدًا، فلم يكن الجامع كبيرًا بالقدر الـذي يتـسع لكـل أهـل البلـد، ويكاد بالكاد يكفي نصف عدد الرجال فيها، ولكن أحدًا لم يلحـظ ذلـك في يـوم من الأيام، فالجامع يمتلئ دائمًـا في يـوم الجمعـة، وهـذا خـير دليـل علـى أن القلوب في البلد عامرة بالإيمان، خصوصًا بين أصحاب الصفوف الثلاثـة الأولى، من أعيان وكبار البلد، والذين يحرصون دائمًا على حضور صـلاة الجمعـة قبـل الأذان، مشكلين حاجزًا كبيرًا من الجلاليب الكشمير، التي تغطيها العبـاءات الجوخ السوداء الثقيلة، والتي يتمسكون بارتدائها حتى في أشـد أيـام الـصيف حرارة، بينما مسابحهم الطويلة ذات التسع والتـسعين خـرزة، والـتي تتـدلى مـن طولهـا لترقـد علـى حـصير الجـامع، وتتـوالى رنـات حباتهـا في تتـابع مدهش!!

أما باقي صفوف المصلين في الجامع، فكانـت كالعـادة لمـن يلحـق أولًـا، وقد يبقى فيها بعض فرجات بعد الدعاء وقبـل الإقامـة، حتـى يأتيهـا الفَـرج

بدعوة الإمام للمصلين بسد الفُرَج، والصلاة صلاة مودع لأن النفس يخرج ولا يرجع، وهكذا ظن المصلون في الإمام، بعد أن طالت سجدته ولم يستجب لأية محاولات منهم للتكبير بصوت عالٍ، عسى أن يسمع لهم، كما يعتاد المصلون فعله لتنبيه الأئمة، عندما ينسون ويخطئون في تلاوة القرآن، أو عندما يسهون عن عدد الركعات، فبدأ الجميع يُوقن بأن هذا الإمام قد مات حقًّا، والبقاء والدوام لله!!

كان هذا التفكير والحكم قد صار جمعيًا، رغم أن القرار والبت فيه كان قرارًا فرديًّا بالفعل، فقد استمر الجميع في سجودهم الذي طال، وفي الوقت الذي ينتظرون فيه القرار من أصحاب الصف الأول، عسى أن يقوموا بأي تصرف للخروج من هذا المأزق الكبير، إلا أن هؤلاء النخبة الذين توسم المصلون فيهم القدرة على اتخاذ هذا القرار المهم، لم يكن لديهم أي رد فعل على مستوى الحدث، ليُرضي جميع الأطراف، والواضح أن هؤلاء الذين تصدروا الصلاة في صفوفها الأولى قد كانوا ينتظرون بعضهم البعض كذلك!!

تعلقت الأفكار والرؤوس ببعضها البعض، ودار بينها حوار عاصف صامت، وتمنى الجميع لو أن حصير الجامع كان خط اتصال سريع بين تلك الأفكار، التي ظلت تنتظر وتنتظر، بينما لم يجرؤ أحد منهم على قطع صلاته ليرفع رأسه، ويرى ما الذي أصاب هذا الإمام، لينقذ برفعة رأسه هذه الجميع

ومن قبلهم نفسه، من هذه السجدة التي قد تؤدي بهم إلى الشلل المؤقت، أو ربما إلى الموت الدائم!!

تعالت الأصوات بالتكبيرات مرة أخرى، كانت قادمة من الصفوف الخلفية للمصلين، عسى أن يسمعها أصحاب الصف الأول، حتى يتخذوا قرارًا هو واجب أصيل من واجباتهم، فلماذا لا يتقدم أحد منهم ويستخلف الإمام، الميت لا محالة في الصلاة؟!! أليس هذا من واجبات من قدموا أنفسهم إلى الصدارة دون باقي الناس؟!! ثم تعالت التكبيرات أكثر وأكثر، تلك التكبيرات التي كانت تتلوها دعوات وتضرعات إلى الله، بأن يكشف الله عنهم هاتين الغمتين، غمة سكوت الإمام، وغمة قلة حيلة صفوة المصلين المترددين في الصف الأول، الذين يبدو أنهم ينتظرون مبعوثًا من العناية الإلهية، حتى يتخذ القرار نيابة عنهم!!

لم يعد هناك بدٌّ من التضحية من أجل المجموع، وكان المُضحي هو المؤذن، والذي يُبلغ عن الإمام في الصلاة كذلك، بعد أن سكت طويلًا، فقد اعتاد على الترديد فقط خلف الإمام، ولم يكن في يوم من الأيام أهلًا للإمامة، وانتظر القرار ممن ظنهم أكثر منه فقهًا وعلمًا، فترك لهم المجال كي يتقدموا لاستكمال الصلاة، ولكن طال انتظاره هو الآخر، فلم يجد بُدًّا من التقدم واستخلاف الإمام في الصلاة، حتى ولو لم يكن ذلك على أصول الفقه

الصحيحة، التي لا يتقنها فعلًا فهو مجرد مؤذن، ولكن ما هو الحل في ذلك الموقف، فلو انتظر قرار أهل الصف الأول، فربما ظلوا ساجدين هكذا ليوم القيامة!!

كبر المؤذن تكبيرة الفراغ من السجود والجلوس للتشهد الأخير، فكبر خلفه كل المصلين بتنهيدة الراحة التي طال انتظارها، ثم تقدم المؤذن بركبتيه خطوتين إلى الأمام، وتلا التشهد الأخير في دقيقة واحدة، ثم سلم على اليمين وعلى اليسار طالبًا رحمة الله وبركاته، التي حلت على الجميع في الجامع، وهنا هب لابسو العباءات السوداء، وأحاطوا بالمحراب والقبلة ومصلى الإمام، أما باقي المصلين فلم يستطيعوا رؤية أي شيء مما كان يحدث في المقدمة!!

لم يكن مسموحًا لأغلب المصلين حتى بالتقدم، لمعرفة ملابسات حادثة شاركوا فيها جميعًا، حتى تواترت لهم أخبار غير مؤكدة، بأن كبار البلد لم يجدوا الإمام ميتًا ولا حتى وجدوه حيًا، فهم لم يجدوه من الأساس!! ولم يذكر من رووا القصة للناس، أي سبب مقنعٍ لذلك، فما الذي يدفع الإمام لترك الصلاة والمصلين في عز السجود ويذهب؟!! حتى تعددت الروايات والتأويلات، فمنهم من قال بأن الإمام قد أصابته لوثة وربنا يعفو عنه، ومنهم من قال إنه قد صار من أهل الخطوة وصاحب كرامات، لدرجة أن البعض قد

أفتى بأن الإمام لشدة ورعه وتقواه قد رفعه الله إلى السماء في عز سجوده وفي صلاة الجمعة، كما رفع إليه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، حتى أتى الخبر اليقين، والذي وأد كل تلك التأويلات أو الخرافات في مهدها، فقد وجدوا جثة الإمام وهو مذبوح وملقًى خلف سور الجامع!!

لم يعرف أحد حتى الآن من الذي قتل الإمام التقي الورع، ثم ألقاه بجوار سور الجامع، وهل قُتل وهو يُصلي في المحراب، أم أنه ترك الصلاة والساجدين وذهب بنفسه لقضاه، وما الذي جعله يفعل ذلك أساسا؟!! لكن المهمة الأهم التي شغلت كبار البلد وأعيانها، كانت هي البحث عن إمام آخر للجامع، بعد أن تركوا مهمة تحديد قاتل الإمام القديم لتأويلات أهل البلد، الذين أدلى معظمهم بدلوه في القضية، والكل يزعم بأنه الوحيد الذي يعرف الحقيقة المخفية، رغم أن أكثر من نصف أهل البلد لم يحضروا للصلاة في المسجد يوم الجريمة، ولكن أحدًا لا يريد الاعتراف بعدم حضوره للصلاة، وحتى الذين حضروا الصلاة لم يروا أي شيء قبل الجريمة أو حتى بعدها، ولكن ما زال الكل يتكلم ويفتي، أما السر الحقيقي لمقتل الإمام وقت صلاة الجمعة، فسوف يسكن حتمًا في صندوق أسرار هذه البلد، ذلك الصندوق المغلق المكتظ بأسرار أخرى كثيرة، لا يعلمها إلا كبارها وأعيانها ذوو العباءات السوداء والمسابح الطويلة!!

(10) البلعوطي بين حكم التاريخ.. وزنقة الفسيخ *

---

* في أبريل 2012

سعيد البلعوطي، عين أعيان تباعين الميكروباص في بلدنا، والذي يعرفه كل ركاب الميكروباصات، ولكن ليس بسبب اسمه هذا "المبلعط"، ولا بسبب هيئته "المبلعطة" كذلك، وإنما بسبب جملته الأثيرة التي اشتهر بها، والتي كان يلقيها على مسامع الركاب عندما يمر ميكروباصه الملاكي، تحت كوبري البراميل، ذلك الكوبري الذي يُعتبر اسمًا على مسمى، فقد كانت ترقد تحته آمنة وبمنتهى الوداعة، مئات البراميل الخشبية المغطاة، وعلى كل غطاء وضعوا نصف قالب طوب، ففي هذا المكان يوجد معمل الفسيخ الأشهر، ليس في تلك البلدة وحدها، ولكن في كل بلاد المركز، ولا يوجد فم في تلك البلاد لكبير أو صغير، إلا وقد امتلأ به في شم النسيم، ثم تكرعه من معدته مطلقًا رائحة زفارته المختلطة بروائح البصل الأخضر والملانة، تلك الزفارة التي كنا نشمها من فوق الكوبري، وتهل علينا بشائرها قبل صعود الكوبري بكيلومتر وأكثر، فتتحول أنوفنا المزكومة، إلى أنوف أكثر حساسية للشم من أنف الكلب "هول"!!

ورغم كل تلك الإشارات، والروائح التي يعرفها الجميع، فإن البلعوطي كان لا يتردد ويعلن عن الوصول للمكان، مطلقًا جملته الشهيرة التي لم يمل أبدًا من تكرارها، منذ أن عمل تباعًا على الميكروباصات، وهو صبي لم

يتجاوز عشر سنوات، حتى فتح عليه ربنا وصار من فئة ملاك الميكروباصات، لكنه أبدًا لم يتنازل عن شعبطته على أبوابها، وتشبثه بالحديدة ليلم الأجرة، والتي يستهلها في كل مرة بتلك الجملة، التي ما إن يسمعها الركاب حتى يرددوها معه كلمة كلمة "أنا شامم ريحة نتنة يا جدعان"، وبمجرد أن تصلنا "نتانة" هذه الجملة، حتى نتحول جميعًا إلى قطط بلدي قد وقفت ذيولها، لكن ليس على رائحة زفارة الفسيخ، وإنما للبحث والشمشمة في كل جيوبنا عن الأجرة!!

وتلك هي حقيقة إطلاق البلعوطي لتلك الجملة، فلم يكن الأمر يخص تأذيه من رائحة الفسيخ على الإطلاق، فقد كانت تلك الرائحة النفاذة على كل حال أخف كثيرًا من تلك الروائح المنطلقة علينا من الميكروباص ذاته، سواءً من شكمانه المفوت بدخانه الأسود النطيس، أو حتى من شكمانات أمعاء الركاب المسموع منها والمشموم، ولا مؤاخذة يعني، لكن كان سماع الركاب لتلك الجملة، يُعد إيذانًا من البلعوطي بنفاد صبره في انتظار الأجرة، وجرس إنذار من جنابه، لكل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء، ويؤجل الدفع متعللًا بأي حجة، حتى يصل آخر الخط، ويدفع وهو نازل من الميكروباص، وهنا ينزل له البلعوطي شخصيًا ويلقنه الدرس على الطريقة البلعوطية القاسية، والتي تبدأ بالشتائم والتقريع، ثم بالصفعات والشلاليت، حتى تنتهي بترك

الزبون في حتة مقطوعة، وربما بنقعه في برميل من براميل الفسيخ، حسب المزاج البلعوطي ساعتها!!

وكان هذا هو مبدأ البلعوطي دائمًا، حتى ينجح في إدارته للميكروباص، والتي استأثر بها لنفسه، ليس لأنه صاحب المال فقط، والسائق يعمل لديه باليومية، ولكن لأنه بدأ سلم الميكروباصات من أول درجة، حتى أكرمه الله بامتلاك عجل خاص به، من بعد طول التنطيط على الخط، والشعبطة في حديد ميكروباصات الغير، وهو يثابر ويضع القرش على الربع جنيه، حتى صار له ميكروباصه الملك، وقد كتب عليه بالبنط العريض "بص بعينك وارحم بقلبك"، ولأنه يعرف جيدًا ألاعيب التباعين أمثاله، فقد ظن أن عمله تباعًا على الميكروباص، سوف يكون هو أفضل قرار، حتى لا يسلم القط وبيده مفتاح الكرار!!

ومنذ هذا التاريخ، وقد صار البلعوطي مثلًا أعلى لكل التباعين، بل واعتبره بعضهم شيخهم الكبير، وصاحب الكلمة المسموعة التي تسري على الجميع، وفي الوقت الذي يزداد فيه حقد السائقين عليه، لأنه كان في جرة وطلع لبرة، ناهيك عن حقد الركاب طبعًا، وهو الذي يشحنهم شحنًا ويستفهم في الميكروباص، كما يُشحن السمك البوري ويُستف في براميل الفسيخ، فهو يُجلس ركابه على الكراسي كدفعة أولى، ثم يرص الباقين على حجر

الجالسين كدفعة ثانية، أما الدفعة الثالثة فلها على السقف العلوي متسع للجميع، لتبقى دفعة الشعبطة على الأبواب محجوزة لمن سينزل في منتصف الخط، بينما يظل البلعوطي ينادي ويصرخ طوال الخط "نفر واحد نفر واحد"!!

وبهذا الأسلوب ظل البلعوطي يدير ميكروباصه، وعلى أفضل ما يكون، ويعصر منه الذهب في كل يوم، بعد أن يكون قد عصر ركابه عصرًا على كراسيه، وصار المحظوظ منهم الجالس من أول الخط، ودخل في الميكروباص ووجهه متوردٌ كما خياشيم السمك البلطي الطازج، الذي يلعب في الشبك، ينزل من الميكروباص وهو يقتلع نفسه منه قلعًا، وهو معصور ومكمور كما الملوحة الرشيدي!!

إلا أن معضلة البلعوطي الكبرى قد بدأت عندما لاحظ انخفاض عدد الركاب لديه، ورغم أن التحميل يتم بالدور في الموقف، فإنه أصبح يملأ كراسي الميكروباص بالعافية، والركاب الزيادة الذين كان يأخذهم في الطريق قد صاروا في خبر كان، وكلما اقترب أحد من الميكروباص ورأى البلعوطي يقف بجانبه، حتى يذهب بعيدًا ليركب الميكروباص الذي يليه، وحتى في أيام الشتاء المطرة المزحلقة، والتي يقل فيها العجل على الطريق، كان الركاب اللئام يهربون منه كذلك، فلم ينسوا تاريخه الأسود معهم، حتى جاء يوم لم

يتوقعه الجميع!!

غاب الميكروباص والبلعوطي نفسه عن الموقف، لأكثر من شهر، ثم عاد إلى الموقف والكل ينظر إلى ميكروباصه في ذهول، فقد تم شده وتنجيد كراسيه وطلاؤه، حتى صار كالعروسة في ليلة الزفاف، وانتظر البلعوطي الركاب، الذين صاروا يركبون على وجل، ولكن أحدًا منهم لم يقبل بالجلوس على حجر أحد، ولم يُسطح أحد منهم فوق السقف كالعادة، ولم يوافق راكب واحد على أن يتعلق على الأبواب، وانطلق الميكروباص في طريقه، وكلما اقترب منه راكب ورأى البلعوطي معلقًا على بابه وينادي، حتى يرفض الركوب ويعود من حيث أتى، والبلعوطي يتميز من الغيظ، فيبدو أن السبوبة لن تأتي بهمها، وما أنفقه على تزيين الميكروباص من أجل هؤلاء اللئام سوف يضيع هباءً!!

شرد البلعوطي في أفكاره، وكان يبدو عليه الهم واضحًا، حتى إنه لم يشعر برائحة الفسيخ عندما مر الميكروباص من فوق الكوبري، ولم يقل جملته الأثيرة، ولم يطالب حتى الركاب بالأجرة صراحة، وترك الناس تدفع له عند النزول من الميكروباص، وغرق في بحر تفكيره في أيام عزه، والتي صارت في خبر كان، بعد أن دفع دم قلبه في تجديد الميكروباص، واعتبر أن الناس قد تغيرت، ولم تعد كما هي نفس الناس، وأقنع نفسه بأن هذه هي

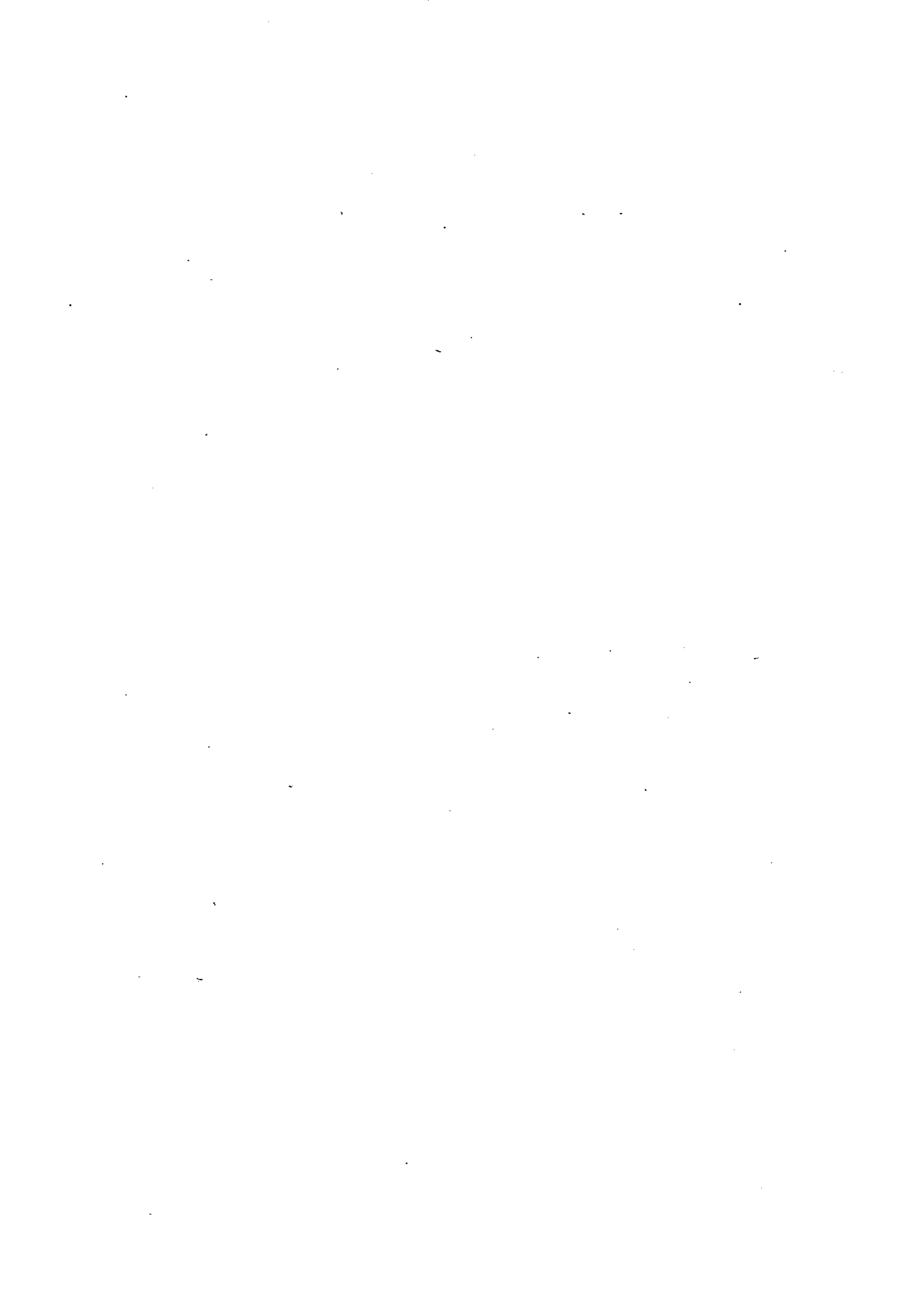
نهاية المعروف، الضرب بالكفوف، حتى سمع خبرًا عجيبًا، رواه لـه الـسائق الذي يعمل عنده!!

التفت البلعوطي ناحية السائق، وطلب منه أن يعيد عليه ما قاله، فقد كان سارحًا في المصيبة التي ألمت به.

فقال له السائق: البقية في حياتـك يـا بلعـوطي، معمـل الفـسيخ اتهـد امبارح.

لم يندهش البلعوطي، وإنما رد بمنتهى الأسى: مـش هـوا بـس اللـي اتهد يا أسطى.

وسـقط البلعـوطي مغـشيًا عليـه، وتم نقلـه إلى المستـشفى، ولكـن ظـل الميكروباص يعمـل، والغريـب أنـه قـد عـاد لطبيعتـه، لا تكـف عجلاتـه عـن الدوران، ولا تخلو كراسيه من الركاب، بـل إنهـم قـد عـادوا يتـصارعون علـى الركوب فيه، وبدوا أكثر سعادة بعد غياب البلعـوطي، وغيـاب رائحـة زفـارة الفسيخ كذلك، بتاريخيهما الأسود الذي لم ينسه الجميع، أما البلعوطي نفـسه فقد خرج من المستشفى أكثر سعادة، بعد أن عادت غلـة الميكروبـاص إلى سـابق عهـدها، فـاكتفى هـو بـالجلوس في الموقـف، كـشيخ عـرب يـدخن الجـوزة، ويُحصل الإيراد من السائق بعد كل مـشوار، وهـو يقـول في نفـسه "مـش مهـم الركاب الملاعين يشوفوني، المهم إن الغلة آخر النهار تبات في جيبي"!!



(11) الذكرى السنوية لكسر ماسورة الحنفية *

* في أبريل 2012

تأخرت كثيرًا عربة الجاز، التي تأتي كل شهر لتملأ "فنطاس" "الكوبانية"، في تلك القرية البعيدة، الراقدة في حضن الجبل، التي لم تدخلها الكهرباء ولا حتى مياه الشرب، ولا يربطها بالطريق الرئيسي إلا مدق ترابي، لا تستطيع أن تسلكه إلا الدواب بحوافرها ذات السنابك الحديدية، لتمشي بجوار المصرف الذي غطته الحشائش، من قلة المياه الجارية فيه، حتى صار ملاذًا لثعابين الشراقي، التي أمنت على نفسها وتكاثرت على أهل القرية، فصارت تهاجمهم من الشقوق التي تملأ أراضيهم العطشى.

كان أهل القرية ينتظرون قدوم عربة الجاز بفارغ الصبر، حتى إنهم كانوا يتجمعون ويجلسون لها على الكوبري، الذي بُني على المصرف ليصل القرية بالضفة الأخرى، حيث الغيطان ومن خلفها الجبل، ويظلون جالسين في محاولة يائسة للحصول على "كابون" جاز، ليُعمروا به لمبة جاز نمرة خمسة تُنير ليلهم الحالك الطويل، أو يشعلوا به "بابور" جاز بفونية واحدة، ليطبخوا عليه طعامًا لأولادهم، بعد أن أعماهم دخان "الكانون"، وحطبه الذي يضنون به كثيرًا على الحرق من أجل الطبخ، لكونه قد ينفع في أي شيء، فيخزنونه مع القش فوق الأسطح، حتى تأتي حريقة لتحرقه كله مع البيوت، ليقفوا أمام الحريق وهم يتعجبون، مع تسليمهم بحكم القضاء والقدر!!

حتى تأتي عربة الجاز، تلك التي يجرها حمار "الطبلاوي" القوي، والطبلاوي هو "العربجي" الذي يتعهد توصيل الجاز للكوبانية، في مهمة كان يرافقها شيخ الخفر شخصيًا، مع عشرة من الخفر المسلحين بالبنادق، وتبدأ تلك المهمة الصعبة جدًا، منذ بداية وصول الطبلاوي بعربته للكوبري، وحتى سلامة وصول العربة والحمار إلى كوبانية الجاز الميري، ليظهر لهما في طليعة المستقبلين الأستاذ "عوض"، مدير الكوبانية، ويتسلمها من الطبلاوي كابون كابون، ثم يختم له على الأوراق، وهنا يضرب الناس كفًا على كف، وتنطلق الجملة الشهيرة التي أطلقوها على عوض "طالما أخدها عوض يبقى عليه العوض"!!

وبعد أن يمتلئ فنطاس الكوبانية تمامًا بالجاز، يبدأ عوض في توزيعه على الناس بالبطاقة، إلا أن الجاز لم يكن يكفي أسبوعا واحدا من الشهر، وعندما يسأل الناس عوض عن الجاز، كان جوابه الدائم على طالبي كوابين الجاز، بأن "الجاز خلص والفنطاس فاضي"، ولم يكن عوض يمانع بتاتًا في اصطحاب السائلين حتى حنفية الفنطاس، ويفتحها أمامهم، ليروا بأعينهم عدم نزول أي نقطة جاز توحد ربنا!!

ورغم أن الأستاذ عوض، كان على عداء دائم مع معظم أهل البلد، فإن أحدًا لم يكن يجرؤ على شكواه لدى عمدة البلد، ولا حتى لشيخ الخفر، لسبب

بسيط جدًا، وهو أن العمدة مع شيخ الخفر كانا من الضيوف الدائمين، على مكتب الأستاذ عوض نهارًا، كما كانا كذلك من شركاء سهراته الليلية، حول حجارة الجوزة المغمسة بالحشيش!!

ورغم انتهاء الجاز من الكوبانية، وتأكيد عوض على ذلك بفتح الحنفية بنفسه أمام الناس، فإن الجاز كان يظل يُباع عيني عينك، لدى بعض التجار في الحارات الضيقة، ولكن بثلاثة أضعاف ثمنه، ويضطر بعض الناس للشراء مجبرين، بعد أن يضربوا أخماسًا في أسداس، وعلى خاطرهم سؤال واحد، من أين يأتي هؤلاء التجار بالجاز، وفنطاس الكوبانية فارغ حتى آخر نقطة!!

ورغم أنه في مرة من المرات، قد فوجئ الجميع بقدوم الطبلاوي وهو يجري لاهثًا، وأنفاسه لا تكاد تلاحقه مثل كلاب الغيطان، عندما تهاجمها ذئاب البراري، ليشتكي للعمدة بأن لصوصًا قد طلعوا عليه من الجبل، واستولوا على عربة الجاز بكل ما فيها، ولم يتركوا له حتى الحمار، فإن العمدة لم يُفاجئه الأمر والتفت إلى شيخ الخفر، وقال له بلهجة هادئة "حاول تمسك الحرامية"!!

اشتدت أزمة الجاز في البلد، حتى هل هلال الشهر التالي، وقدمت عربة الجاز في حراسة مشددة من الخفر وشيخهم، الذي لم يمسك الحرامية

حتى الآن رغم أنه أعاد العربة والحمار، ورافقوها من أول الطريق وحتى وصلت إلى الكوبانية، وتم تسليم الجاز لعوض، فتقدم بعض شباب البلد ليشاركوه في توزيع الجاز على الأهالي، فرفض عوض ذلك رفضًا باتًا، وقال لهم غاضبًا بأن هذا هو عمله، ولا يحق لأحد أن يشاركه فيه، أو بمعنى أصح "أن يتمريس عليه"، فزادت ثورة الشباب عليه، خصوصًا أن الجاز قد انتهى بعد يوم واحد فقط من بداية التوزيع، وهذا ما أكده عوض للناس، وأخذهم كالعادة للحنفية ليدلل على كلامه!!

وبعد موجات من الشد والجذب، بين عوض وبين الشباب الثائر على نقص الجاز في الكوبانية، اندفع جمع كبير من أولئك الشباب واقتحموا الكوبانية، وقيدوا عوض بالحبال، ثم كسروا ماسورة الحنفية، فاندفع الجاز من الماسورة المكسورة بغزارة، واكتشفوا بأن الحنفية لا تعمل، وقلبها محلول من الداخل، وتلف يدها لتفتح وتغلق على الفاضي، حتى لا تنزل منها أي نقطة جاز، وعوض يصرخ فيهم وهو مقيد بالحبال، بأنهم سوف يدفعون ثمن تعديهم عليه، وأنه سيتهمهم بأنهم هم من قام بتعطيل الحنفية، وكسروا الماسورة ليسرقوا الجاز!!

وأتى شيخ الخفر بجميع رجاله، وطوقوا الكوبانية من كل اتجاه، وتم حل قيود عوض، ثم قبضوا على كل من كان موجودا في الكوبانية، وتم

ترحيلهم إلى المركز، وتُركت الكوبانية في عُهدة عوض، حتى حضرت النيابة للتحقيق ومعاينة مكان الحادث، فاستقبلهم عوض أحسن استقبال، وقادهم إلى حيث الحنفية المكسورة، وأراهم الفنطاس الذي كان فارغًا عن آخره!!

فوجئ أهل البلد بتحويل أولادهم للمحاكمة بتهم كثيرة، على رأسها الاعتداء على منشآت عامة بغرض تخريبها، والاعتداء على موظف عمومي أثناء تأدية عمله، وسرقة مال عام وبيعه في السوق السوداء، والغريب أن شهودًا من أهل البلد قد شهدوا عليهم بذلك، واستمرت القضية عامًا في قاعات المحاكم، ما بين سجال وجدال بين المحامين، والأولاد محبوسون في السجن، أما عوض فما زال يمارس عمله على رأس الكوبانية، التي لم يعد يُباع فيها أي جاز على البطاقة، فعربة الجاز رغم أنها كانت تأتي في كل شهر، لكنها أصبحت تُسرق وتأتي فارغة، والعمدة ما زال يأمر شيخ الخفر بمنتهى الرقة "ابقى امسك الحرامية"!!

وفي نفس اليوم الذي كُسرت فيه ماسورة الحنفية، احتفل عوض مع العمدة وشيخ الخفر، وفي مقر الكوبانية بذكرى مرور عام على القبض على من كسروا ماسورة الحنفية، بعد أن حاولوا سرقة الجاز من الكوبانية، مؤكدين للناس أن هؤلاء ورغم أنهم في السجن، فإن كثيرًا من الحرامية ما زالوا خارج السجن، ويهاجمون عربة الجاز ليسرقوا الجاز قبل وصوله للكوبانية،

وجاري البحث عنهم وتسليمهم للمركز، حتى يُحاكموا مثل الآخرين!!

الذكرى السنوية لكسر ماسورة الحنفية، خرجت أصوات من أهل البلد، تعيب على هؤلاء الأولاد الصغار، تحديهم لعوض والعمدة وشيخ الخفر، وكسرهم للماسورة وكشفهم لعطل الحنفية، فعلى الأقل كانوا ينالون جزءًا ولو قليلاً من الجاز، أما الآن فلم ينبهم إلا كثرة الحرامية، وحُجزت القضية للنطق بالحكم، وقبل أن ينطق القاضي بحكمه، هتف الشباب في قفص الاتهام "السرقة لسة هيا هيا، يا تصلحوا الحنفية، يا تمسكوا الحرامية"!!

(12) في انتظار كتابة المحضر *

* في مارس 2012

لم يكن أحد يتوقع أن تتحول تلك المعجـزة إلى مجـرد خناقـة يخـوض فيها المتخاصمون في أعـراض بعـض، وتـسيل فيهـا الـدماء بـلا ثمـن، رغـم أن الجميع قد استبشر خيرًا بعـد أن انتهـت المهمـة أخـيرًا، وقـد أدلى فيهـا كـل الحاضرين بدلوهم، فعملية رفع جذع شجرة كبير كان يقطع الطريق المرصـوف بالأسفلت، والوحيد الذي يربط تلـك المدينـة الـصغيرة بمـا حولهـا مـن القـرى الكثيرة المتناثرة، كانت مهمة شاقة بالفعل، ولولا قيام الناس بإنجازهـا علـى قلب رجل واحد لما تمت، خصوصًا أن الجذع قد قطع الطريـق في فـصل الـشتاء، حيث تكثر حركـة المـسافرين مـن وإلى المدينـة، مـن شـتى الأنحـاء، موظفـون يريـدون الـذهاب لأعمـالهم، وطلبـة إلى كليـاتهم ومدارسـهم، وباعـة خـضار وطيور وغيرهم، يستخدمون ذلك الطريق الـذي لا يوجـد بـديل لـه، لكـل مـن يستخدم السيارات الأجرة، سواءً من الميكروباص أو النقل.

ورغم أن جذع الشجرة كان مـن الـضخامة، بحيـث إنـه أغلـق الطريـق تمامًا، ولم تستطع أي سيارة المرور قبل رفعـه، فـإن همـة وعـزم الـشباب مـن ركاب الميكروباصات، كانت هي العامل الرئيسي، في سرعة رفع الجذع، حتى وضعوه على جانب الطريق وفتحوه مرة أخرى، بعد أن تقـسموا لـثلاث فـرق، فرقة تصدت مباشرة لرفع الجذع الكبير، وفرقة تصدت لرفع فـروع الـشجرة،

وفرقة أخرى ثالثة اكتفت بترديد كلمة "هيلاااا هوب" و"شدوا حيلكوا يا رجالة"، حتى تم رفع الجذع وفروع الشجرة نهائيًا، وتم فتح الطريق أمام السيارات.

ورقص الجميع على أنغام النصر، وانهمكوا في تهنئة بعضهم البعض، على ما أبلوا في تلك المهمة من بلاءٍ حسن، كان محط إعجاب من الجميع، وبدا الأمر كأنه معجزة ربما لن تتكرر كثيرًا، إذ من النادر جدًّا أن يتجمع الناس من أهل تلك البلد، على قلب رجل واحد لإنجاز شيء ما، فلم يذكر لهم التاريخ ذلك التجمع إلا في مرات معدودات، كانوا فيها محل إعجاب وانبهار بل وحسد من كثير من البلدان المجاورة، لما يفعلونه بتجمعهم هذا من معجزات لا يصدقها عقل.

ثم عاد كل راكب إلى ميكروباصه، وبدأ يحكي للجميع عن صولاته وجولاته، في ملحمة رفع الجذع، وكيف أنه ومن دون همته، ما كان لهذا الجذع أن يُرفع إلى يوم القيامة، ثم بدأت تتعدد الروايات من كلٍ منهم، وشب الخلاف فيما بين الرواة، عن هذا الذي كان له الدور الأكبر في رفع الجذع، وفي خضم كل تلك النقاشات بل والشجار كذلك، تاه السبب الحقيقي في سبب سقوط الجذع وقطعه للطريق، وما إذا كان مجرد صدفة من فعل الرياح القوية، أم أن أحدًا قد قام بقطع الجذع وإلقائه لهم في الطريق، حتى يقطعه عليهم،

خصوصًا أن أحدًا منهم لم يشغل باله ويكلف خاطره، ويذهب ويعاين مكان الجذع، وما إذا كان هناك أثر لقطعه، بواسطة يد خفية أرادت سوءًا بهم وما زالت مجهولة!!

تطاير خبر إزالة الجذع من الطريق، مثل تطاير "السبرتو" من زجاجة منسية مفتوحة، وصار الخبر هو الحكاية المروية الأهم على لسان القاصي والداني، بفضل ألسنة سائقي الميكروباص والتباعين في موقف المدينة، وصار كل سائق يدّعي بأن ركاب ميكروباصه الأشداء، تحت إشرافه وقيادته هو بالطبع، هم من كانوا لهم اليد العليا في رفع الجذع اللعين، بعد أن ظنه الناس باقيا في مكانه وإلى الأبد!!

وكعادة سائقي الميكروباص، يبدءون جلساتهم بالهزار وإلقاء النكات والقفشات، بل والتراشق بالألفاظ على بعضهم البعض، وهم يشربون الشاي ويدخنون المعسل خلال فترات انتظار دورهم في التحميل، فأحد السائقين ويُدعى "أبو العزم" يدّعي بأنه لم ير زميله "سمعة" أثناء رفع الجذع، بل إنه قد حلف بالطلاق من "جماعته" الجديدة، بأن عَجل "سمعة" لم يكن أساسا على الخط في ذلك اليوم، وأنه هو فقط من كان صاحب "العزم" الحقيقي في عملية رفع الجذع!!

وهنا رد عليه "سمعة" بمنتهى الحزم، بأنه هو الذي يدعي البطولة،

وأن بسلامته "أبو العزم" ساعة رفع الجذع، كان مشرّفًا كالعادة في "الغرزة" التي في ظهر الموقف، ليشرب في "الاصطباحة" و"يعمل دماغ"، ويشهد على ذلك "حسونة" صاحب نصبة الشاي.

فرد عليه "أبو العزم" مستنكرًا وقال: "على الأقل أنا كنت في الموقف، وليس مثل بعضهم كان ينام في تلك الساعة في حضن الجماعة"!!

فاستشاط "سمعة" غضبًا وهب لكي يتشاجر مع "أبو العزم"، على اعتبار أنه قد خاض في حرمة وأعراض بيته، وكلمة من هذا وكلمة من ذاك، انقلب الهزار إلى خناقة لرب السماء، وهب جميع السائقين لفض هذا الاشتباك بين "سمعة" و"أبو العزم"، اللذين لا يفوتهما أي واجب مع أي سائق في الموقف، خصوصًا في مسألة الخناقات، سواءً على الطريق أو على أبواب الموقف، أو حتى في داخل قسم شرطة الموقف، وفُتحت المطاوي من الجميع في الخناقة على سبيل المجاملة، وسالت دماء كل من "سمعة" و"أبو العزم" وبعض من تدخل "ليُحجز" بينهما، كذلك على طريق المجاملة، حتى انتهى الموضوع برمته على مكتب الصول "عفيفي"، القائم بأعمال الضابط "النوبتجي"، في نقطة شرطة الموقف.

وبسبب هذه الخناقة، توقف الموقف تمامًا عن استقبال وتوصيل الركاب، وتزايد تراكم الركاب داخل الموقف حتى أغلقوا كل الطرق المؤدية

إليه، ولم يعرف أحد من الركاب بالضبط سببًا لهذا التجمع حول نقطة الشرطة، وصار السؤال المُلح من الجميع "هوا في إيه؟!!"، لكن أحدًا لم يسمع إلا طرطشة كلام من البعض، بأن الموضوع كان مجرد "هزار" ثقيل بين اثنين من سائقي الميكروباص "هزار سائقين"، ثم انقلب الهزار إلى جد ودخل في الأعراض!!

لم يكن الصول "عفيفي" مهتمًّا بفض الخلاف بين المتخاصمين، بقدر ما كان يريد الظهور بمظهر المُسيطر على كل الأمور في الموقف، وصاحب الكلمة العليا فيه، فشمّر يديه وشرع في كتابة محضر محترم، أفرغ فيه خبرة ثلاثين عامًا في تدبيج المحاضر، خبرة يعجز عنها أي ضابط بدبابير ونسر، ولكن "سبع صنايع والبخت العفيفي في الميري ضايع"، وأنهى المحضر الذي حرص فيه على إدانة الطرفين، كما حرص كذلك على التسخين بين "أبو العزم" و"سمعة"، حتى يضمن أن تستمر الخناقة بينهما مشتعلة!!

وأخيرًا وبعد طول انتظار، وإصرار من الركاب على دخول نقطة الشرطة، لمطالبة الصول "عفيفي"، بأن يمارس سلطته ويأمر السائقين بسرعة عودة الميكروباصات لتحميل الركاب، وهم يتساءلون عن وظيفة أو فائدة نقطة شرطة الموقف، إذا لم تعمل على ضبط الأمن، وأن تضبط كذلك من يُعطل مصالح الناس، حتى اضطر الصول "عفيفي" أخيرًا، إلى ممارسة عمله وركن محضر

"سمعة" و"أبو العزم" على جنب لبعض الوقت، وأمر العساكر بأن يعيدوا السائقين لميكروباصاتهم، وعادت الحركة للموقف بعد ساعات من توقفها.

وصل أول ميكروباص إلى مكان جذع الشجرة، الذي لم يكن على جانب الطريق كما تركه الشباب صباحًا، بل كان يقطع الطريق بالعرض، ويبدو أن مجموعة مَا قد أعادت الجذع ليقطع الطريق مرة أخرى، ولكن في هذه المرة لم يتقدم أحد من الركاب حتى يرفع الجذع، ليفتح الطريق الذي تعطل مرة أخرى!!

حتى اتصل أحد الركاب من تليفونه المحمول بنقطة شرطة الموقف، ولكن الرقم لم يكن يرد، فقد كان العساكر منهمكين في فض خناقة جديدة نشبت بين السائقين والركاب، أما الصول عفيفي فقد فرَّغ نفسه تمامًا لاستكمال كتابة المحضر الخاص بخناقة "سمعة" و"أبو العزم"، وما زال الطريق مقطوعا في انتظار انتهاء كتابة المحضر!!



(13) أنا شارب سجارة بني *

---

* في سبتمبر 2012

لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت...

هكذا ظل صوت عبد الحليم حافظ ينطلق بهذه الأغنية، حتى ضج منها أهل المنطقة، وضجوا كذلك من "نصر" الخفير، الذي يحرس إحدى العمارات التي تحت الإنشاء، والذي يعيد ويزيد في الأغنية وبلا ملل، من جهاز "الكاسيت" الكبير المتهالك ذي السماعات الدائرية بنظام "أوتوريفرس"، والذي يفخر به نصر كثيرًا، ويردد دومًا على كل من يتندر عليه وعلى ضخامة كاسيته وضخامة سماعاته، تلك العبارة المكررة والتي ملها الناس كذلك بأن "دا كاسيت ياباني أصلي وبتاع بلده"!!

كان نصر قد أحضر الكاسيت معه من السعودية، عندما كان يعمل هناك لمدة خمس سنوات متصلة، لم يستطع فيها أن يأخذ إجازة واحدة توحد ربنا، حتى استغنوا عن خدماته، لكنه أبدًا لم يستغن عن خدمات الكاسيت، الذي ظل يرافقه ويذكره بأيام العز، والتي ابتلعها الماضي فيما ابتلع منذ أكثر من عشرين عامًا، ولم يبق له منها إلا صوت هذا الكاسيت بشريطه الأصلي، الذي أخذه مع الكاسيت من البائع فوق البيعة، ولم يشتر من بعدها أي شريط أصلي ولا حتى تقليد، ورغم مرور كل تلك السنوات، لكن الشريط لم يتلف، مع أنه يديره كل يوم ليسمع نفس الأغنية، حتى ظنه

الناس قد اشترى الكاسيت والشريط بداخله، ولم يتعلم حتى الآن كيف يغيره بشريط آخر، ولكن كل هذا لم يكن يهم نصر ويتعمد أن يطرب، ويهيم مع كلمات الأغنية في ملكوت الخيال، ورغم أن كلماتها باللغة العربية الفصحى، التي لا يفهم نصر معظمها، لأنه رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه كان يردد ويفهم معنى هذه الكلمات جيدًا!!

ونصر الذي كانت تكسو التجاعيد والمنحنيات وجهه، لترسم عليه كل أفاعيل الزمن وقسوته، بعد أن ولت عنه أيام النعيم كما يظن، فترك نفسه للطفو فوق أمواج الحياة، لتحمله حيثما شاءت وكيفما أرادت، وهو قانعٌ بنصيبه القليل من على هامشها، وحتى لو كان أهل المنطقة التي يعمل فيها ويقيم أيضًا، لا يرون فيه إلا مجرد مصدر إزعاج لهم، بل إن بعضهم كان يعتبر الخلاص منه هو غاية الأماني، حتى يعود الهدوء مرة أخرى للمكان، والذي افتقده منذ أن بدءوا في بناء تلك العمارة السكنية الجديدة، وأحضروا نصر ليكون حارسًا للبناء فقط، فقد كلفه مقاولها بحراسة الطوب والزلط والرمل، لكن نصر قد وضع نفسه تحت تصرف كل أهل المنطقة، يطلبونه فيجدونه تحت الأمر والطلب، ليحمل في أشياء وينظف في محلات ويغسل في سيارات، فقد كان يكفي أي طالب له أن ينادي من بعيد ويقول "يا نصر"، فتنشق الأرض عن نصر، ليقف أمام

مناديه وهو يقول له "أي خدمة يا باشا"!!

لم يكن نصر يريد أن يُغضب أحدًا منه، هكذا قد تعلم في بلاد الغربة في السعودية، كان يفعل أي شيء لكي يرضى عنه الناس، طالما أن ذلك سوف يجعله يكسب مالًا حلالًا في النهاية، كانت له في الحياة نظرة عصرتها التجارب، فمثله ممن لم يحصلوا على أي شهادة، إلا شهادة التجنيد بعد ثلاث سنوات من الخدمة بلا ثمن، لم يجدوا شيئًا لكي يتحججوا به ليرقوا من أنفسهم، ولم يتعلموا كذلك أي حرفة يبحث الناس عنهم من أجلها، فيصبح كل رصيدهم في الحياة هو الكلام، والذي كان نصر يختار للناس أحلاه، ويتجنب حتى مع أقسى الناس أقساه!!

مرت سنوات الغربة على نصر كما طيف سريع، حتى اضطروه للعودة بلا أي تعويض أو حتى شكر، فعاد ثانية لهذا المكان الذي كاد قديمًا أن يموت فيه، لم يكن مسقطًا لرأسه ولا ملعبًا لصباه، لكنه كان يحبه ويتعلق به أكثر من أي مكان، فهو قطعة غالية من أرض الوطن، سالت من أجل عودتها كثيرٌ من الدماء، تذكر رفاق السلاح وليالي الخوف والرجاء، التي عاشها تحت طلقات الرصاص ودوي القنابل، أين من بقي منهم الآن؟! كان قد حمل معظمهم لمثواه الأخير، ثم حمل آماله من بعد النصر ليضعها بين أحضان الدولار والريال، بعد أن رجع لقريته بعد الحرب فلم يجد أحلامه التي كانت

تسكن فيها، فقد بارت الأراضي وانفض عنها الناس، ورحل العرق الذي كانت تُروى به الأرض السوداء، ليملأ بحورًا لا تسد ظمأ الرمال التي لا تشبع في الصحراء!!

بدأ الجوع يبحث عن بطنه التي عادت متخمة، فالبيت الذي بناه بالأسمنت والحديد، قد ابتلع الأرض التي كانت تكفيه وتشبعه إلى الأبد، وصار عليه الآن أن يعمل لكي يستطيع الحياة، فحرس العمارات والمشاريع ولكن بعيدًا عن بلدته لكي لا يراه أحد، لكنه لم يتنازل عن بهرجة الغربة الزائفة، فكان يحمل معه دائمًا الكاسيت والمروحة، لكل مشروع يتسلم فيه الحراسة، ويحمل معه كذلك عيونه التي تُغمض عند اللزوم، وأذنيه اللتين تسمعان الإساءة وتسكت!!

كانوا صبية صغارًا أو هكذا كان يراهم، يتجمعون ويثرثرون ثم يتندرون عليه، ويضحك لهم وهو يدخن الجوزة، فيتصاعد الدخان في ظلام الليل، ليغطي على أدخنة أخرى تتصاعد كذلك خلف العمارة، كانت أدخنة زرقاء تُداري أفعالًا أخرى مشينة، لم يكن نصر يدري عنها شيئًا، أو ربما كان يدري ولا يهتم، فقد اعتاد على الحياة غريبًا في بلاد غريبة، وقد تعلم جيدًا كيف لا يتدخل فيما لا يعنيه، حتى لا يلقى ما لا يرضيه!!

ولهذا ضج سكان المنطقة من نصر، ومما يغض الطرف عنه في كل

ليلة، فقد تعددت السرقات وحوادث الاعتداء على البنات، بل إن أحد الصبية قد وُجد مقتولاً في إحدى الخرابات، وصار حمل المطاوي وإشهار السيوف حدثًا عاديًا، وقد وجدها بعض الأهالي في جيوب أبنائهم، فصار الجميع يسبون في نصر وأمثاله، من الغرباء الذين قدموا إلى المدينة، بعد أن انشغل أهلها في التجارة والربح، وكان نصر كثيرًا ما يقول لنفسه "لولا دماء زملائي وعرقي أنا ما اغتنى هؤلاء"، لكنه لم يكن يُعلن ذلك أبدًا، فقد كان يوقن بأنها أرزاق وقد قسمها الله، ولولا أنهم تركوا الكد والتعب وركنوا إلى الراحة والرزق السريع في التجارة، ما وجد هو وأمثاله رزقًا يطعمون به أولادهم، وهكذا كان يقول في الغربة خارج الوطن، حتى عاد ليجد نفسه غريبًا كذلك في وطنه!!

نادى عليه أحد الأشخاص في الصباح كالعادة، فاندفع نصر ليلبي الطلب، كان المنادي ضابطًا من سكان المنطقة، لم يكن يريد شيئًا منه كما توقع، لكنه قد أنذره بمغادرة المنطقة كلها، ليس هو فقط ولكن عليه أن يصطحب معه كذلك كل المجرمين والبلطجية الذين سكنوها على يديه، لم يستطع نصر الرد عليه، ولم يكن يعرف كذلك من هم هؤلاء البلطجية، ولم يعرف ماذا سيفعل بعد أن يُغادر، لكن كل ما كان يعرفه أن الحكومة هي التي يجب أن تعرف كل شيء!!

غاب نصر تمامًا عن المكان، وتنفس الجميع الصعداء بغيابه، فحتمًا سوف تغيب الجريمة والبلطجة تمامًا، لكن جثة جديدة قد ظهرت ملقاة في إحدى الخرابات، وذهب الضابط ليعاين المكان، كانت الجثة المقتولة لرجل في الستين من العمر، تبدو التجاعيد القاسية واضحة على وجهه، دقق فيها الضابط كثيرًا، فاكتشف أن المقتول كان نصر نفسه، فقُيد الحادث ضد مجهول، فهؤلاء البلطجية ليس لهم في عرف الحكومة ثمن!!

عاد جسد "نصر" لقريته القديمة في صندوق، ليرقد هادئًا مهزومًا تحت التراب، وعاد الضابط لبيته مجهدًا، لم يلتفت لزوجته التي أخبرته بأنها قد وجدت مطواة في ملابس ابنهما المراهق، فلعن الظروف التي جعلت تلك المنطقة الراقية الهادئة، مسكونة بنصر وأمثاله من المجرمين، فحولوها مرتعًا للجريمة في كل يوم، حتى علموها لأولادهم الصغار، ثم دخل لينام مرتاحًا تحت البطانية، حتى أيقظه في الصباح صوت كاسيت صيني مقلد، وكان الصوت عاليًا لأقصى حد، وهو يتحشرج بأغنية منتشرة في تلك الأيام تقول "أنا شارب سيجارة بني، علشان دماغي بتاكلني"، كان الصوت ينطلق هذه المرة من غرفة نوم ابن حضرة الضابط!!



(14) فلتاؤوس أفندي *

* في مارس 2012

رغم أن كرشه الكبير كان يسبقه، إلى حيث المائدة التي تنتظره، لكي يلتهم لفة السمك المشوي، الذي يحمله في الكيس، وقد تسللت رائحته "زفارته" إلى "نخاشيش" أنف جنابي دون استئذان، والذي سيأكله مع ربطة الجرجير "الوراور"، مع صف العيش البلدي "القابب"، الذي خبزه له الفران مخصوصًا، وانتقاه هو بالرغيف ليضعه بين أوراق "جرنان" الأهرام، ليحتضنه بيده اليسرى بجوار القلب تمامًا، فإنه لم يفوت الفرصة، وكبس على نخاشيشي أنا، ليس لأنها شمت السمك بالطبع، ولكن لأنه كان يراني لأول مرة، فبدأ يطرح علي أسئلته المتوالية،عني وعن سبب وجودي في ذلك المكان!!

وكانت هذه هي أول معرفتي بـ "فلتاؤوس أفندي"، مع اليوم الأول لسكني في تلك العمارة، حيث استلمني جنابه مع أول درجات السلم الطويل، لتبدأ معه رحلتي الشاقة الأولي حتى الدور الخامس، حيث يسكن هو، وأكمل أنا للدور السادس الذي تقع فيه شقة الطلبة الوحيدة في تلك العمارة السكنية، التي تمتلئ بالسكان الأرانب الخائفين جدًا، من نوعية الطلبة الذئاب أمثالنا، رغم أن لديهم أولادًا ذئابًا كذلك، ولكن ذئبيتهم هذه لا تظهر غالبًا، إلا خارج العمارة!

وفلتاؤوس أفندي، الذي لم يكن هذا هو اسمه الحقيقي طبعًا، وإنما كان هذا هو الاسم الذي أطلقناه عليه نحن الطلبة، بسبب تصديه لجمع النقود الخاصة بصيانة العقار، كما كان يفعل فلتاؤوس أفندي الحقيقي، في الفيلم

الشهير "معلش يا زهر"، خصوصًا أن العقار لم يكن له صاحب، فقد كان من الإسكان التعاوني، في بلد يعتبر التعاون فيه هو آخر ما يلجأ إليه المواطنون لحل مشاكلهم اليومية!!

ثم ما لبث أن انتشر الاسم بين سكان العمارة، كما كانت تنتشر النار من أعقاب السجائر، التي يلقيها زميلنا المدخن الشره "خليل"، فتستقر مشتعلة في أكوام القمامة المتراكمة في الخرابة المجاورة للعمارة، لتشعل فيها الحرائق، حتى سميناه خليل "حريقة"، وكدنا أن ننسى اسمه الحقيقي كذلك، خصوصًا أننا كنا نلحق حرائقه المتعددة، على آخر لحظة وقبل أن تحدث كارثة بإلقاء جرادل المياه، التي كان يسمع طشاتها ليلًا فلتاؤوس أفندي، فيخرج في البلكونة ليسب ويلعن في هذا الجيل وأبنائه، وما ستليه من أجيال لا يعلم بها إلا المولى عز وجل!!

وكما تعهدني فلتاؤوس أفندي، من الدرجة الأولى للسلم، وحتى الدور الخامس حيث يسكن، تعهدته أنا كذلك بنظراتي المتفحصة، أثناء ردودي المقتضبة على أسئلته الكثيرة، وكدت أن أعلنها في وجهه صراحة "إنت فاكر نفسك شيخ الغفر ولَّا ناظر المدرسة"، ولكني تراجعت أكثر من مرة، فقد خشيت أن يكون حضرته، شيخ خفر فعلًا لدى حبايبنا الحلوين من مخبري أمن الدولة، والذين نذكرهم دائمًا بالخير، خصوصًا بعدما فعلوه في شقة

الطلبة في الشارع الذي وراءنا!!

وفلتاؤوس أفندي كان من نوعية الرجال، الذين يُصدرون أنفسهم في كل شيء، ولا تمل أنفه الضخمة من أن تدس أرنبتها في كل موضوع، لإشباع رغباته المكبوتة في الزعامة، خصوصًا أنه قد خرج حديثًا على المعاش، وترك هيلمانه الوظيفي، وقد تأكدت من ذلك، عندما طالعت اليافطة النحاسية الكبيرة التي وضعها على باب شقته، وكان مكتوبًا تحت اسمه عليها "مدير بالتربية والتعليم"، وتحتها وبخط صغير جدًّا وبين قوسين كتب "سابقًا"!!

ورغم أن مجهولين، كانوا يُصرون أن يكتبوا له على اليافطة، فلتاؤوس أفندي بالطباشير، فإنه كان يحرص أيضًا على مسحها في كل صباح، وهو يُضمر في نفسه حقدًا دفينًا، على الملاعين الذين يسكنون في شقة الطلبة التي في الدور السادس، من الذئاب المجرمين الذين ابتلى الله السكان بهم، من أفعال بناتهم التي لا يعلمها إلا ربنا، ثم فلتاؤوس أفندي وبالتفصيل، وما أكثر الحكاوي التي يسمعها في المقهى المواجه للعمارة مباشرة، والذي كان يقضي فيه معظم أوقاته، وهو يطالع في صفحة الوفيات في الأهرام بعين، بينما العين الأخرى تتابع وبمنتهى الاهتمام، كل بنت أو سيدة عازبة أو متزوجة تخرج من العمارة، متفحصًا فيها وفي حمار خدودها كما الخوخ العرايشي، ولا ينسى أن يحصي بالضبط عدد الخوخ الذي على الخدود، من خلف نظارته كعب الكباية!

إلا أننا كنا والله وحده يعلم، براء من تلك التهمة براءة الذئب من دم سيدنا يوسف، ولكننا كنا ذئابًا على كل حال في نظر فلتاؤوس أفندي، ولهذا كان يضعنا دومًا في مواضع الاتهام، مع كل جريمة تحدث معه أو مع غيره، من ظنه السيئ فينا، ورغم أنه ظل يحيك في مؤامراته الخبيثة بليل من حولنا، حتى يطردنا من العمارة شر طردة، ويرتاح هو من قبل الجميع، لكن كل مؤامراته كانت تبوء بالفشل دائمًا، لكراهية السكان له هو شخصيًا، نظرًا لتدخله الدائم فيما لا يعنيه!!

ورغم كل تلك المشاعر من الكراهية حول فلتاؤوس أفندي، فإنه كان يقوم بواجباته تجاه العمارة على أكمل وجه، من دفعه لفاتورة المياه المشتركة بين السكان، وجلب عامل لمسح وغسيل السلم، ورفع القمامة المتراكمة عليه، وتغيير لمبات السلم ومدخل العمارة المحروقة، وتفصيل قفص حديد لحماية موتور المياه من السرقة المتكررة، وكذا كسح المياه المتجمعة في مدخل العمارة المنخفض عن الشارع، والذي كان يتحول لبركة مياه رمادية، في أيام الشتاء المطرة، إلا أن أحدًا لم يكن يطيق طلعة جنابه، وهو يدق على جرس باب كل شقة، مطالبًا بدفع نصيبها في الصيانة!!

ظل فلتاؤوس أفندي، ينغص علينا عيشتنا طوال العام الدراسي، حتى ظننا أن جنابه مقرر علينا في أول كل شهر، مثل باقي مقررات الدراسة، وأنه

آتٍ حتمًا لنا كسؤال إجباري في أي مادة غلسة، حتى انتهى العام الدراسي بسلامة الله، ونجحنا جميعًا ولله الحمد في كل المواد، عدا مادة فلتاؤوس أفندي التي رسبنا فيها جميعًا، ورجع كل منا إلى بلده وأهله، حتى بدأ العام الدراسي الجديد، فرجعنا جميعًا وسكنا في نفس الشقة لقربها من الكلية، ورغم كرهنا لسحنة فلتاؤوس أفندي التي ستعود لتطل علينا بسببها، لكن ميزة الذهاب إلى الكلية سيرًا على الأقدام، من دون أن ندفع ربع جنيه أجرة للميكروباص، في الذهاب وكذلك في العودة، كانت تغطي بكثير على غلاسة فلتاؤوس "بك" المدير السابق بالتربية والتعليم!!

إلا أن دخولنا للعمارة، في أول يوم دراسي، كان له انطباع آخر، ولم يكن أبدًا مثل السنة الماضية، فلم تكن العمارة على حالها السابق، فالسلم كان مليئًا بأكياس متراكمة من القمامة، ودرج السلم كان في قمة القذارة، وأدوار كثيرة من بسطات السلم ظلت لمباتها محروقة، ولا نكاد نرى خطواتنا على السلم المظلم، فتعجبنا جميعًا لكننا لم نسأل عن السبب، فقد كان واضحًا للعيان، وعلى يافطة شقة فلتاؤوس أفندي، التي كانت نظيفة تمامًا ونحاسها يلمع، ومن دون أي أثر للطباشير، فلم يكتب أي أحد كلمة "فلتاؤوس أفندي" على اليافطة، التي كانت تلمع مع اسمه، الذي أصبح مسبوقًا بلقب "المرحوم"!!

(15) صراع المعلم الربع والريس "التلاتربع" *

* في يوليو 2012

عادت الأمور أخيرًا إلى ما كانت عليه، في شونة الغلال الواسعة في البلد، وظهر المعلم "عسكر" مرة أخرى بجوار الريس "شعبان"، بعد أن كان الوضع غريبًا فعلًا، فالريس شعبان برغم ضخامته وطول قامته الواضح، لا يقوى أبدًا إلا بدعم من المعلم عسكر، الذي كان قويًّا بالفعل، بالرغم من قصره الواضح واقترابه من الأرض، ولهذا سماهما أهل البلد "الربع" والتلاتربع"، فكل منهما لا يستغني عن الآخر، فعسكر (الربع) لن يكون له وجود أبدًا إلا بوقوف شعبان (التلاتربع) بجانبه، وشعبان (التلاتربع) لا ينصلح حاله أبدًا إلا ببقاء عسكر (الربع) قويًّا، وكأنهما يكملان بعضهما ليكونا كيانًا واحدًا صحيحًا، والذي لا يعني تقسيمه في أي بلد، إلا أن تنساب معه بحورٌ من الدماء!!

والمعلم الربع الذي ظل وتدًا قويًّا ولا يغلبه غلاب، رغم أنه لم يكن يستخدم قوته إلا عند الضرورة القصوى، لكن كانت لديه ميزة أخرى، كان يلجأ إليها للسيطرة على الشونة الكبيرة المترامية الأطراف، والتي لم تكن تتهدد باللصوص من الغرباء فقط، بل ومن داخل البلدة ذاتها، بالإضافة لأسراب العصافير والغربان التي تخطف وتجري، إلا أن الربع يحرص على ألا يستخدم عضلاته البارزة أبدًا، لكي يقف في وجه كل هؤلاء، فقد كان

يكفيه دهاؤه وعقله الراجح، في إيهام كل هؤلاء بأنه مستيقظ ليلًا ونهارًا، وكانت صيحة واحدة منه في أول النهار تكفي لرهبة كل الطيور، وصرخة واحدة منه في منتصف الليل، تكفي لرهبة كل اللصوص، أما الباقي فيتركه للتلاتربع، بعد أن يختفي في غرفته الحصينة الكائنة على باب الشونة!!

أما التلاتربع الذي يملأ العين عندما تراه من بعيد، فقد كان طويلًا وعريضًا وممتلئ الجسم، إلا أنه لم يكن يشعر بقوته هذه أبدًا، وكان دائمًا ما يُطأطئ رأسه أمام كل وافد للشونة، ورغم أن الربع قد ترك له مهمة التعامل مع الوافدين إلى الشونة، وتسلم كل أجولة الغلة من الفلاحين، ثم يقوم بتسليمها بعد ذلك للتجار، فإن التلاتربع لم يكن يقبض نقودًا من أي تاجر، فقد كانت مهمته هي مجرد التسلم والتسليم ثم البصم على الأوراق، أما الحساب فظل دومًا في غرفة الربع، التي كانت مغلقة دائمًا ساعة الحساب، ولا يفتحها الربع إلا عندما ينادي على التلاتربع، ويسأله إن كانت الكميات سليمة وعلى ضمانته أم لا؟!

ورغم أن التلاتربع كان ينهد حيله، في حمل الأجولة من الفلاحين إلى داخل الشونة، ثم حملها مرة أخرى إلى التجار في خارجها، وإذا سقط مريضًا تتوقف كل حركة البيع والشراء، فإن الربع لم يكلف خاطره في يوم من الأيام، ويقوم بزيارة التلاتربع المريض الراقد خلف الأجولة، حتى إنه عندما

كان يرجع ليستأنف عمله، كان الربع يكلفه باستكمال ما تأخر من عمل، خلال فترة رقدته في مرضه، وعلى الرغم من قيام التلاتربع مقام الربع، في حماية الشونة عندما رقد الربع منتكسًا على فراش المرض منذ عدة سنوات، لكن الربع لم يذكر له ذلك في أي وقت، خصوصًا أن التلاتربع لم يكن يشتكي أبدًا من هذا الوضع، مما جعل الربع يتمادى في عشمه مع التلاتربع، حتى إنه كان يقسو عليه كثيرًا، ولا يلقي له أي بال أمام زائري الشونة!!

بدأت مكاسب الشونة تقل كثيرًا، والجميع يتساءل عن السبب في ذلك، وعما إذا كان اللصوص قد وجدوا طرقًا جديدة لسرقة أجولة الغلة، ولم يستطع أن يكشفها الربع بكل دهائه، أم أن التلاتربع نفسه كان يبيع منها لحسابه الخاص، فبدأ الاثنان في تبادل الاتهامات أمام الناس، وبعد أن كان الناس يعتبرانهما يدًا واحدة، إذا بهما قد صارا بسبب المصلحة كل في طريق، حتى صارت المواجهة محتومة بين الطرفين!!

وفي لحظة فارقة ثار التلاتربع، بعد أن أضناه كثرة اتهام الربع له بالإهمال، فطرح الجوال الذي كان على ظهره أرضًا، والتفت ناحية الربع وشرر الغضب يتطاير من عينيه، وبدت قامته مستقيمة للمرة الأولى على غير العادة، واتضح الفرق الكبير في الطول بينهما، وحتى عندما ضربه الربع بالعصا على ساقه الطويلة، تقدم التلاتربع نحوه متأهبًا لرد الضربة له على

رأسه، فتراجع الربع للخلف واعترف بأنه كان مخطئًا في حقه، وأعلن بأن هناك طرفًا ثالثًا كان يسرقهما سويًا!!

انقلبت الأمور في الشونة رأسًا على عقب، بعد المواجهة الكبيرة بين الربع والتلاتربع، وتوقفت حركة البيع والشراء، وتأزم الأمر لفترة طويلة، فعاث اللصوص والغربان فسادًا في الشونة، حتى صار حتمًا على الجميع التدخل للوساطة، ليتم حل هذا الموقف الصعب قبل أن يخسر الطرفان، فرغم تكرار هذا الموقف من قبل في شونات أخرى في بلدان مجاورة، فإن شونة هذه البلد هي الأكبر والأخطر بين كل البلدان، وتوقفها لا يعني إلا خرابًا للجميع لا يعرف مداه إلا الله!!

عاد الربع والتلاتربع مرة أخرى، ليظهرا سويًا في الصورة، وتعاهدا على نسيان الماضي، فلا الربع كان يقدر برغم قوته ودهائه على أن يقهر التلاتربع الذي اكتشف أخيرًا أنه كان قويًا ولا يدري، وأن قامته كانت منحنية أكثر مما يجب، فتعالى عليه الربع بقصر قامته الملحوظ، وصار يعلو ويعلو عليه رغم أنه لا يكتمل طوله إلا به، لكن الاثنين قد اتفقا أخيرًا على القبول بالأمر الواقع، أو على الأقل في تلك المرحلة، كي يواجها اللصوص والغربان الذين تكاثروا على الشونة لينهبوها بلا رابط، في ظل انشغال الربع والتلاتربع بالصراع المصيري بينهما!!

ولكن ظل المعلم الربع، يفكر ويخطط لكي يسيطر مرة أخرى على الريس التلاتربع، بعد أن أدرك قوته الحقيقية التي لم يكن يشعر بها، تلك القوة التي يجب أن يستغلها فقط في حمل أجولة الغلة، حتى إن البعض قد سمع الربع خلسة وهو يقول لبعض جلسائه، بأنه حتمًا عائد لقيادة الشونة، وأن التلاتربع عائد ثانية لحمل أجولة الغلة، ولا يجب أن يفكر في أي شيء آخر قد تسوله له نفسه، تلك التي جعلته يتطاول على أسياده!!

(16) ثورة جمل عرفات *

---

* في مارس 2011

لم يكن عرفات شخصًا عاديًّا في البلد، بداية من اسمه "عرفات"، والذي أطلقه عليه أطفال البلد، منذ زمن بعيد، فقد كان اسمه الحقيقي هو "إسماعيل"، إلا أن أحدًا لم يكن يناديه بهذا الاسم، وعلى عكس كل عجائز البلد، كان عرفات يتميز بسواد شعره الواضح، رغم أنه قد تعدى السبعين من العمر، بل إن البعض كان يؤكد بأنه قد تخطى الثمانين، نظرًا لأنه لم يسجل في سجلات المواليد، وكان كما يقولون عليه "ساقط قيد"!!

إلا أن عرفات ظل شخصًا مهابًا من كل أهل البلد، حتى ممن كان يكرهه منهم، لأنه يمتلك ويقود الشيء الوحيد، الذي لم يكن يجرؤ على قيادته أي من أهل هذه البلد، وربما في البلدان المجاورة لها أيضًا، فمن الطبيعي أن يمتلك أحد أهل البلد من الفلاحين حمارًا أو بغلًا أو حتى حصانا، ويقوده بنفسه في مشاويره الخاصة، إلا أن عم عرفات وحده، الذي كان يمتلك جملًا ويقوده بنفسه، بل ويؤجره كذلك لمن يرغب في نقل الأحمال الثقيلة، التي يستعصي حملها على حمل أكبرها بغل في البلد!!

ولكن السبب الأهم أن عرفات كان رجلًا مفتريًا فعلًا، وكان ذلك واضحًا من طريقة تعامله مع أولاده التسعة، من زوجاته الثلاث، فالرجل كان جملًا بشريًّا بالفعل، ويبدو أن هذا هو ما أخاف منه الجمل الحيوان!!

وفي جميع الحالات، كان عرفات هو القائد دائمًا، ويستطيع بكل سهولة أن يقول للجمل "نخ"، فلا يكذب الجمل خبرًا وينخ، وسط ذهول

وإعجاب كل أهل البلد، ولأن جمل عرفات كان من النوع الكبير، ذي السنام الواحد العالي، ويبدو كجبل متحرك عندما يتنقل بين الحقول، لهذا سماه أطفال البلد "جبل عرفات"، ثم تحولت على ألسنة الجميع إلى "جمل عرفات"، ومن هنا جاءت تسميته بـ"عرفات" بدلًا من إسماعيل!!

ومشوار حياة عرفات نحو امتهان هذه المهنة، ودخوله إلى كار الجمالة الغريب على الفلاحين من أمثاله، فقد ظلت المهنة حكرًا على العرباوية من البدو الرحل، الذين يطوفون في البلاد وكل يوم في بلد، حتى استقروا في تلك القرية فترة من الزمن، واستولوا على الأراضي الفضاء بوضع اليد، بعد أن يقيموا فيها الخيام والموالد، ثم تتواتر الإشاعات عنهم وعن نسائهم، اللاتي يعملن أعمالًا "مش ولابد"، ولا يرضى عنها أهل القرية ونسائهن الحرائر، بداية من السحر وضرب الودع، وحتى القدر والمكتوب على بنات العرباوية، تحت سمع وبصر رجالهن الذين لا يجدون غضاضة في ذلك، طالما أنهن يكسبن الأموال لهم، خصوصًا أن الرجال أنفسهم يشتهرون بالسرقة والنهب ولعب القمار!!

لكن وحده عرفات هو الذي اقتحم عليهم كار الجمالة، وقد كان القمار هو طريقه للنفوذ إلى عالم العرباوية الغامض، إذ كان عرفات شقيًا جدًا في شرخ شبابه، ورغم كونه فلاحًا وتبدو غليه البساطة، لكنه كان من النوع الذي

يرسلك إلى الترعة، ثم تعود إليه وبيدك القلة، فيشرب هو ثم يتركك عطشان!

واستطاع عرفات الشاب آن ذاك، أن يكسب من لعب القمار مع العرباوية جملًا ذكرًا، كان هو نواته في بناء مستقبله في القرية، بعد أن نجح في التخلص من العرباوية، باستنفار كل أهل البلد عليهم، لكونهم يأتون المنكرات عيني عينك، غير عابئين بتقاليد البلد وشعبها المؤمن، ورغم أنه لم يكن أبدًا في طليعة المهاجمين للوجود العرباوي، واستيطانه لأرض البلد دون استئذان، فإنه كان المحرك الرئيسي لعملية تخليص البلد منهم، وطردهم شر طردة من أرض البلد الطاهرة، وبدا كأنه يدير كل شيء، رغم أنه ظل مختبئًا في الحظيرة التي أخفى فيها الجمل طوال المعركة، حتى استتبت الأمور وظهر بالجمل أخيرًا، في مجتمع القرية، بعد أن أعلن أنه قد غنمه من العرباوية الكفار، عندما هربوا بهزيمتهم من البلد، مما أكسبه شهرة وجسارة تحاكى بها الجميع!!

وكما كان عرقات ماهرًا في تحريك الناس، وتجميعهم نحو الهدف الذي يريده، حتى دون أن يشاركهم فيه، بل وإيهامهم أنه كان في الطليعة، فقد استطاع كذلك السيطرة على الجمل، وصار الجمل مثل العجينة في يديه، وبدأ يستخدمه في خدمة أهل البلد نظير أجر متفق عليه، مما جعله من الأثرياء المعدودين، فلم يعد في البلدة باشا أو حتى بك، من أولئك الإقطاعيين

وارثي الثروات الضخمة، ومرت الأيام بعرفات وهو يحتكر نقل كل الأحمال في البلد، ورغم أنه كان يغالي في تسعيرة تأجير الجمل، فإنهم كانوا يرضخون له ويدفعون، فمن مثله يقدر على قيادة جمل يحمل كل تلك الأحمال، من أهل هذه البلدة الجبناء!!

بدأ الجمل يكبر في السن مع توالي الأيام، مثله مثل عرفات تمامًا، ولم يعد الجمل قادرًا على حمل كل تلك الأحمال، خصوصًا أن عرفات كان يقسو عليه كثيرًا، ويضربه بلا رحمة وأحيانا بلا سبب، كما ترك مهمة جمع الأجرة لأولاده، خصوصًا لابنه الأكبر "بهاء" الذي ضج منه كل أهل البلد، ومن باقي أشقائه بسبب طمعهم في ثروة أهل البلد، وفي والدهم عرفات نفسه الذي زاد مرضه وأصبح بنصف رِجْل في الدنيا، وبرجل ونصف في الآخرة!!

ولما أحس عرفات بانصراف أهل البلد عنه، خصوصًا مع ورود أخبار عن اقتراب قدوم "الفواخري"، وهو أحد الغائبين عن القرية منذ زمن، وقد كون ثروة لا بأس بها، فتواترت أخبار عنه بأنه قادم ومعه "جرار" زراعي بمقطورة، سوف تنهي أسطورة جمل عرفات، وقد روج لمجيئه مجموعة من الشباب في البلد، وهنا انتفض عرفات وانتفض أولاده أكثر، خصوصًا ابنه الأصغر "كمال" الطامع في وراثة مهنة أبيه، والذي لم يهدأ له بال، حتى قطع الطريق المؤدي إلى البلد، حتى لا يستطيع الجرار بمقطورته الكبيرة دخولها، كما سرب إشاعات

مفبركة عن علاقة الفواخري بالعرباوية، وأنه متزوجٌ من أحد نسائهم، وسوف يسمح لهم بالعودة، لتمتلئ البلد مرة أخرى بالنجاسة، وقد صدق تلك الشائعات كثير من أهل البلد، خصوصًا مع كرههم البالغ للعرباوية!

وفي خضم صراع أبناء عرفات مع الفواخري، لم يلتفت أحد منهم للمشكلة الأكبر التي نسوها أو تغافلوا عنها، وهي مشكلة الجمل ذاته الذي شاخ، ولم يعد يحتمل كل تلك الأثقال، حتى صحوا في يوم نحس لهم، فوجدوا المفاجأة المعجزة التي لم يتوقعها أحد منهم بالفعل!!

كان عرفات قد انهمك في ضرب الجمل بالعصا، بعد أن حرن به في أحد أجران القش، ولم يستطع الجمل الحركة رغم الضرب، رغم أن فوق ظهره حمل قش صغيرا، وهو الذي كان يحمل قبل ذلك خمسة قناطير من القطن، ومن فوقها عرفات نفسه، وبلا أدنى تعب، فانهال عليه عرفات ضربًا بالعصا وبلا رحمة، حتى نزف الجمل دماءً من رقبته، فألقى الجمل بما فوق ظهره من حمل على الأرض، ثم وثب على عرفات نفسه وعقره بأسنانه، حتى لفظ عرفات أنفاسه الأخيرة!!

مال الجمل على عرفات في أسى، وبدا كأنه يبكي عليه بعد أن تساقطت الدموع من عينيه، ولكن دموعه المتساقطة كانت أقل كثيرًا من الدماء التي نزفت من رقبته!!

الفهرس





قصص

على حافة الجنة

لكن الصغار غالبًا ما يسامحون وينسون الإساءات، أما الكبار فيعتبرون أن التطاول على ذاتهم هو التطاول على نظام الكون نفسه، فهم يبنون لكرامتهم كعبة يصبح الحج إليها فرضًا واجبًا، ولا حجة فيها لغير المستطيع، فأخرجوا المحروقي من زمرة المؤمنين بسنة الحياة، التي يتسيدها الكبار حتى في الصلاة، إلى زمرة الغاوين في الدنيا والهالكين في الآخرة.

(على حافة الجنة)

رغم أن كل شيء قد تغير في البلد، فإن تجدد الحنين لإيجبليانا، قد أعاد عقارب الساعة إلى الوراء، وبدا كأن الزمن قد توقف برهة، عند ذلك اليوم الذي غابت فيه، فعادت الظهور المحنية إلى استقامتها، والوجوه المكرمشة إلى نضارتها وألقها، أما الشعيرات البيضاء فقد توارت خلف ظلام بات ينتظر فجرًا جديدًا، فجاء مفعمًا بالأمل والرجاء، فقد عادت إيجبليانا وعادت معها كل الأحلام، وبدا الجميع يتساءل في لهفة، هل ما زالت إيجبليانا كما هي؟! هل ما زالت بضة بيضاء متوردة الخدود؟! وهل ما زالت ابتسامتها تنثر الندى فوق زهور الربيع لتتفتح؟! هل ما زالت إيجبليانا كما هي إيجبليانا؟!!

(عودة إيجبليانا)

النشر لمن يستحق 4

كلمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها "النشر لمن يستحق" بعد قيام ثورة يناير المجيدة.. ولفترة محدودة وعلى مراحل،، علّ ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائج إيجابية..

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح -مثل سابقيها- بإذن الله، من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

ولتبدأوا الاستمتاع بحروف هذا الكتاب.

